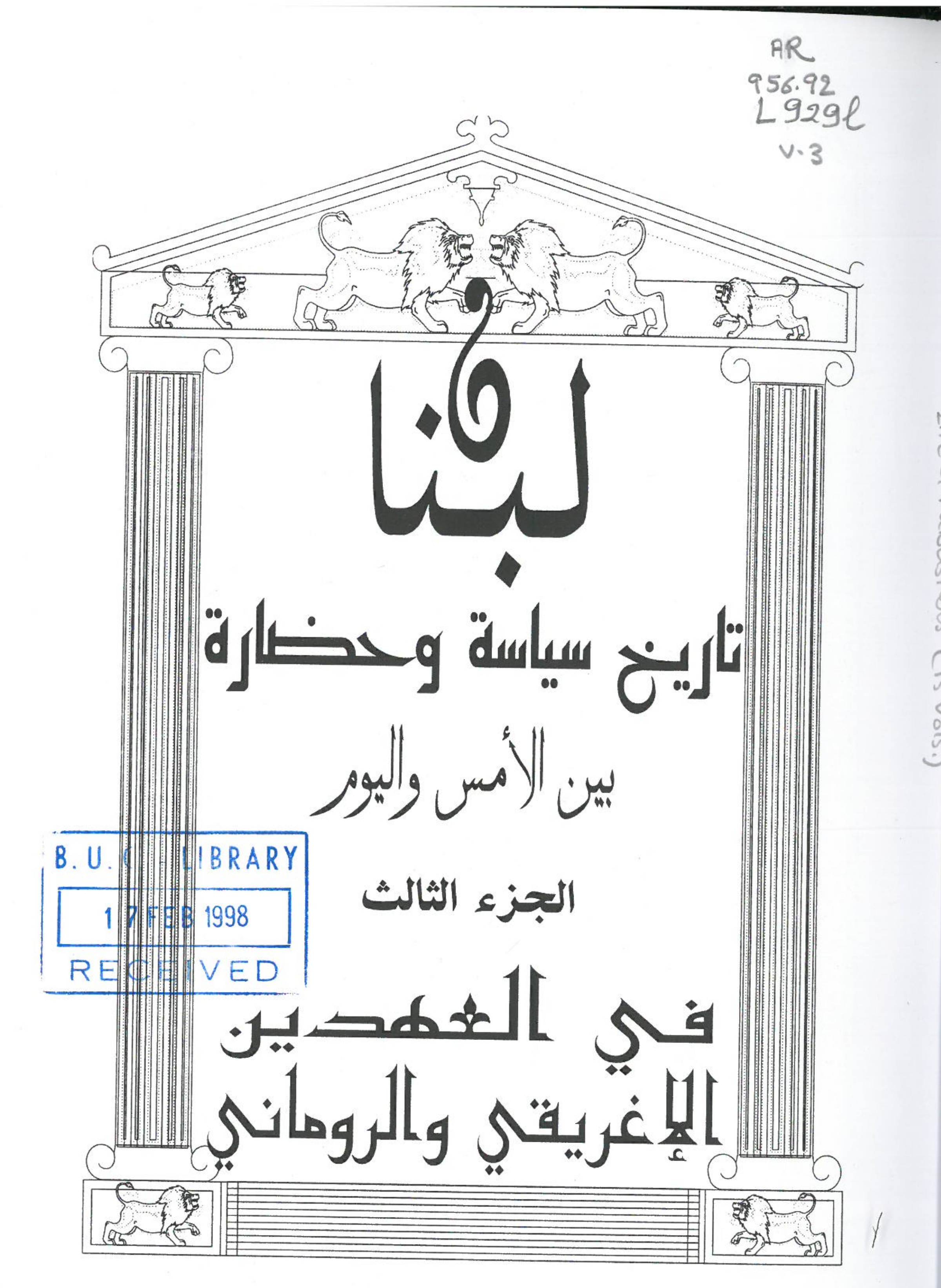

موسوعة
لبنان
تاريخ، سياسة وحضارة
في العهدين
الإغريقي والروماني


لبنان
تاريخ سياسة وحضارة
بين الأمس واليوم
الجزء الثالث
في العهدين
الإغريقي والروماني

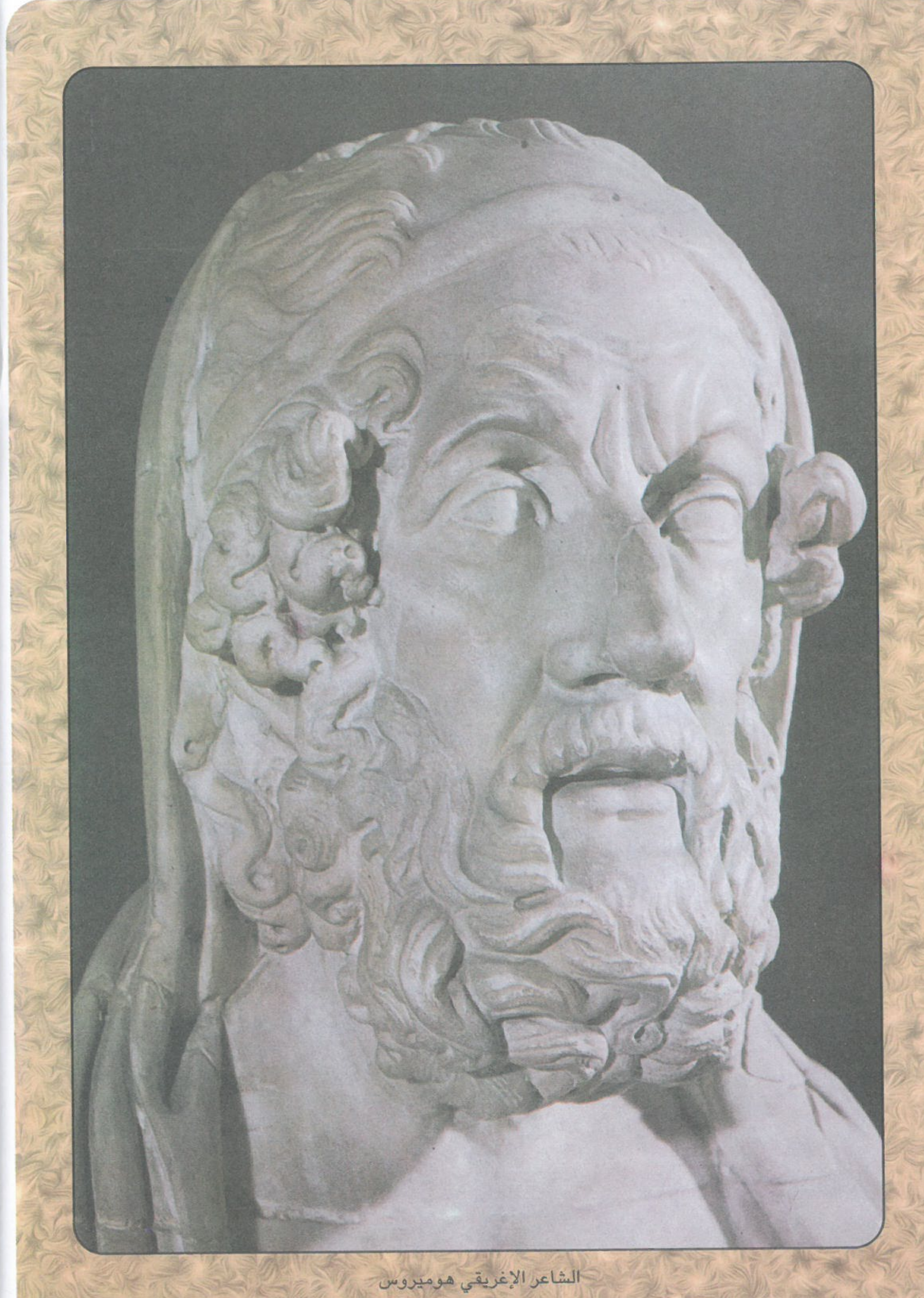
ملحق الصور



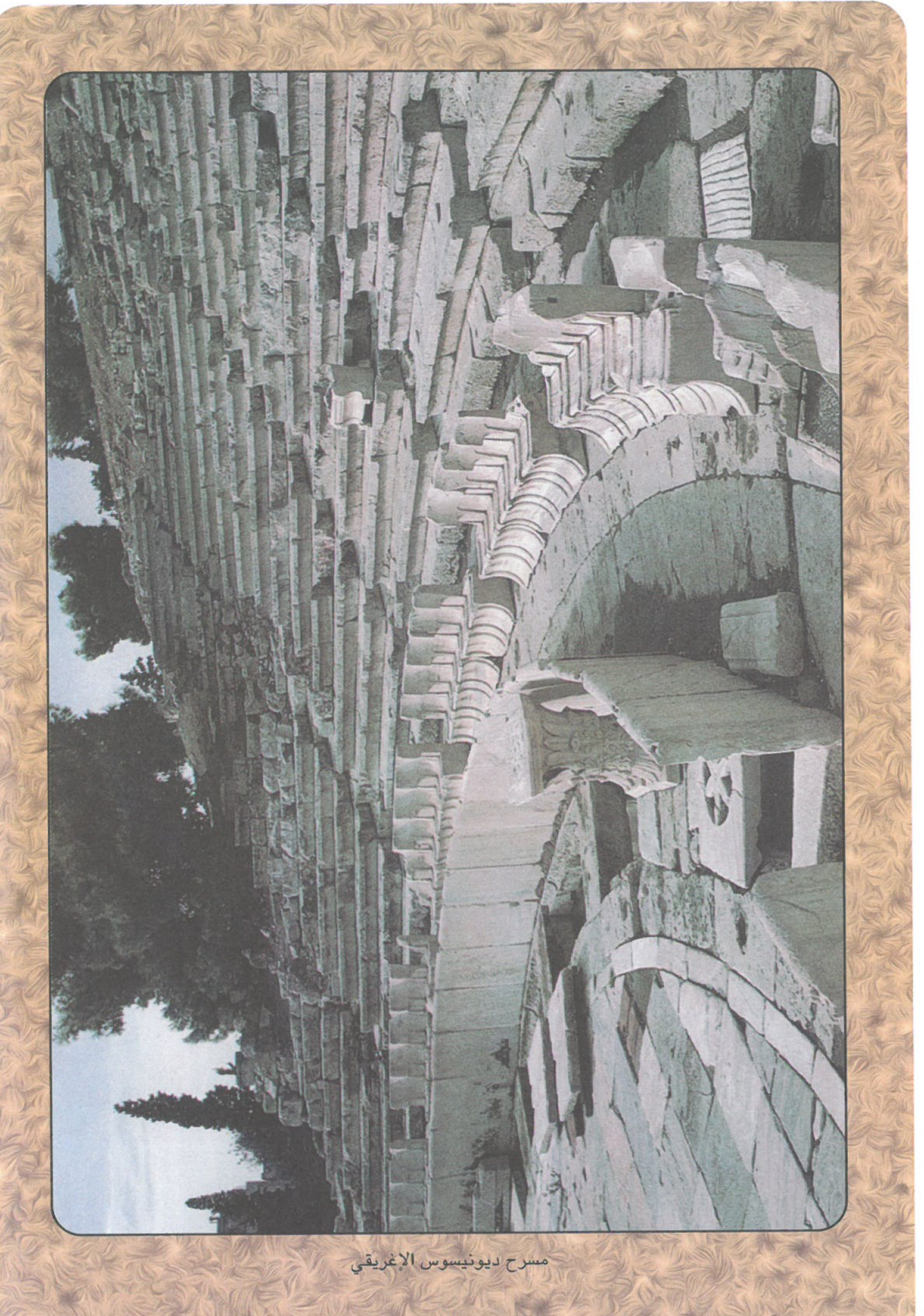
جانب من فسيفساء تمثل الإسكندر في معركة إيسوس

الإسكندر على حصانه

معبد زوس الأولمبي



الشاعر الإغريقي هوميروس

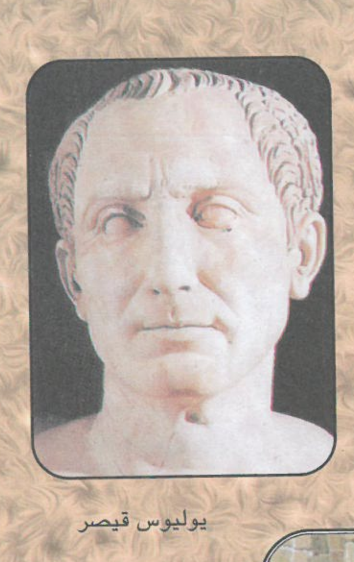


مسرح ديونيسوس الإغريقي

ذئبة الكابيتول والإخوان ريموس وروموس



أغسطس قيصر



يوليوس قيصر



جندي روماني

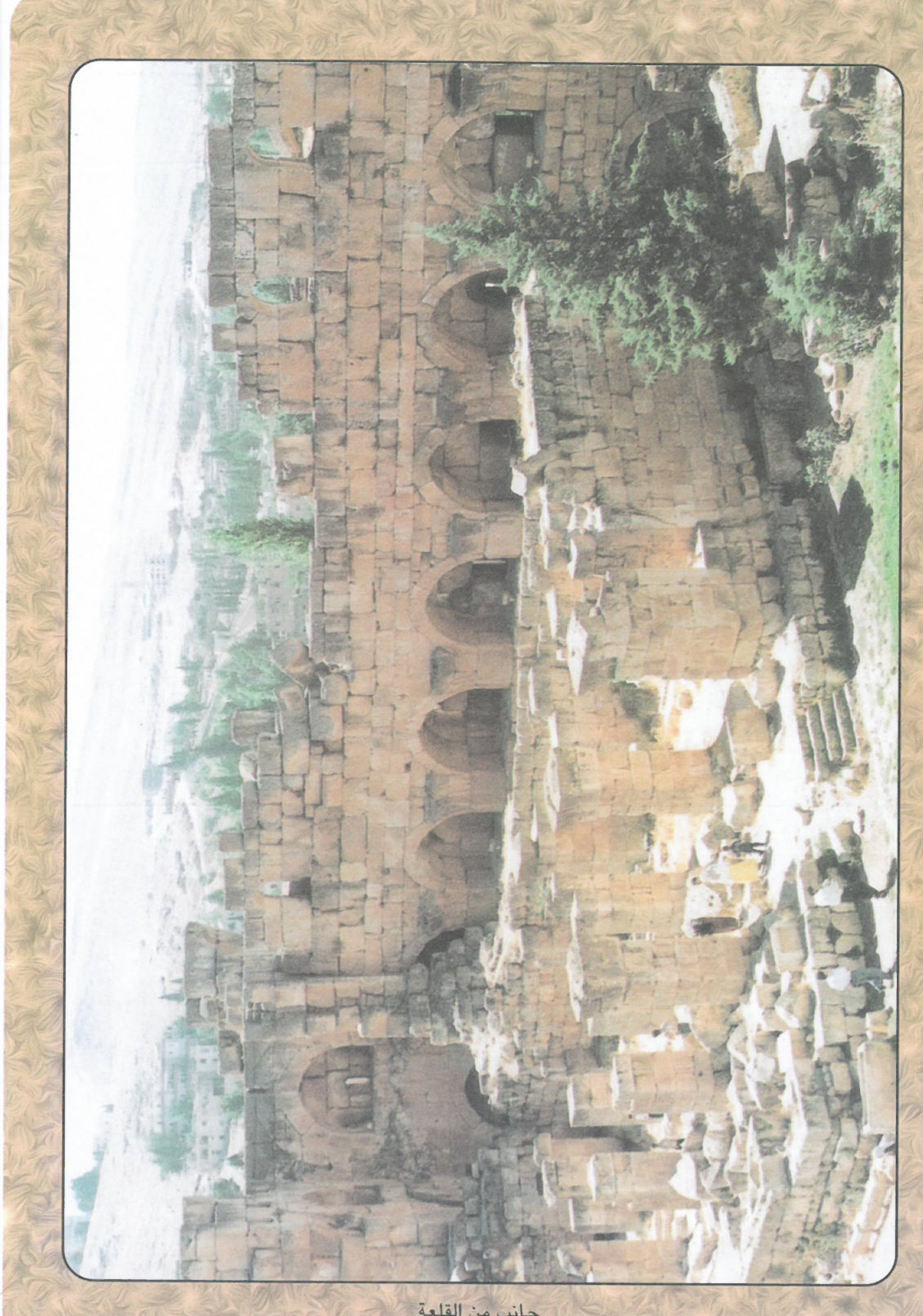
الأمبراطور قسطنطين الكبير

لقطات من أكروبول بعلبك



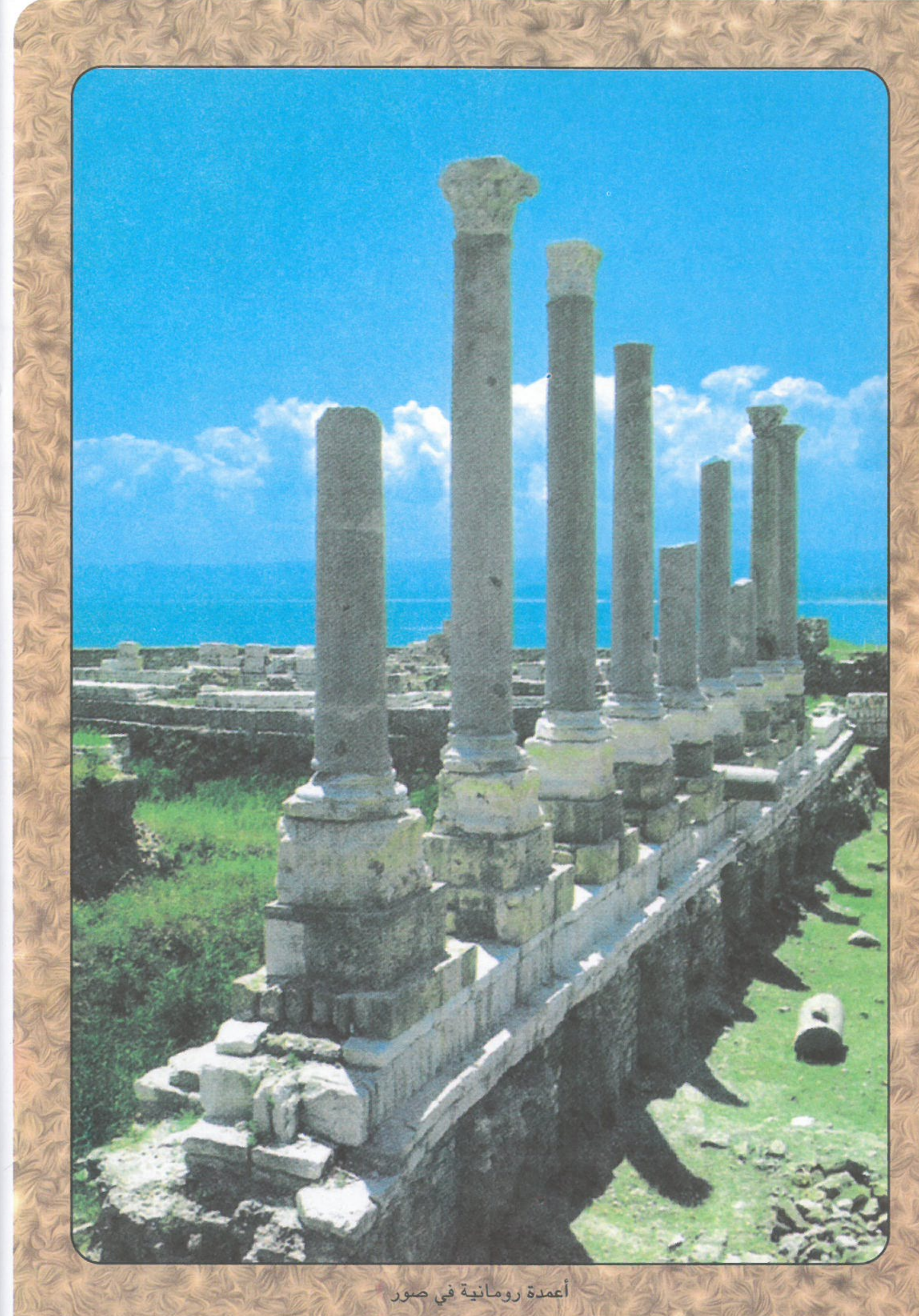
جانب من معهد باخوس

الأعمدة الستة



جانب من القلعة

قوس نصر روماني



أعمدة رومانية في صور

نقوش على ناووس روماني في صور



لوحة من القرن الثامن تمثل صلب المسيح

القسم الأول

لبنان في العهد الإغريقي

دنيا جريج

الفصل الأول

التوسّع الإغريقي
وفتوحات الإسكندر

الانتصار على الفرس

قبل بضع سنوات من احتفال الفرس بالذكرى المئوية الثانية لاحتلالهم مناطق الامبراطورية البابلية، بما فيها سورية وفلسطين، وضع فيليبس الثاني ملك مقدونيا الخطط لتحرير المدن اليونانية من سيطرة فارس وأولى أمر تنفيذها لابنه الاسكندر، بعدما كان أخضع كل الدول الإغريقية الأوروبية الواقعة إلى الشرق من مضيق أوترانتو لسيطرته باستثناء ابيروس واسبارطة وبيزنطية، وهو كان يحلم بذلك أن يردّ يوماً الزيارة الملوكية التي قام بها كلّ من داريوس وأحشويرش إلى اليونان، لكن القدر لم يمهله ليرى ما حققه ابنه إذ أنه اغتيل بطعنة خنجر.

يوم التنفيذ تقرر وكان في أحد أيام الربيع عام ٣٣٤ ق.م. وتمكن الاسكندر الذي فاق أباه همة وطموحاً وشهرة من احتلال الامبراطورية الفارسية كلها خلال عشر سنوات من ٣٣٤ إلى ٣٢٥ دون أن يفقد الإشراف على البلاد التي ورثها عن أبيه.

والمعركة الأولى كانت في ايسوس، إذا بدأ الاسكندر في سن العشرين هجومه على رأس جيش يقرب عدده من ٣٥ ألف رجل، فعبر الدردنيل وتوغل في آسيا الصغرى التي كانت آنذاك فارسية وما كاد يخرج من مضائق كيليكيا في جبال طوروس، ويعبر مناطق السهول حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠) ومعه أكثر من مئة ألف جندي في ممر ايسوس الضيق. وعلى الرغم من استبعاد شعوب آسيا آنذاك من دخول الاسكندر في المعركة نظراً للوجود المكثف للجنود الفارسيين إلا أن الجيش اليوناني استطاع بمهارته العسكرية مقابلة تفوق الفرس في عدد الجيش ممّا دفع بداريوس الذي كان يراقب المعركة من عربته الفاخرة التي تجرها أربعة خيول جنباً إلى جنب بالإسراع في الهرب شرقاً مع من تبقى حوله من جنود مخلفاً حريمه في المؤخرة.

وتخليداً لذكرى الانتصار أسست في مكان الحادث مدينة الاسكندرونة التي لا تزال تحمل اسمه وأعطت أصداء هذا النصر الحاسم مجداً جديداً للاسم اليوناني في البلدان المجاورة وألقت في الوقت عينه الرعب واليأس في قلوب الفرس.

فتح المدن الفينيقية

وجاء دور المدن الفينيقية؛ فبعدما رأى الاسكندر من الحكمة أن يؤمن المواصلات البحرية والبرية، عدل عن اللحاق بعدوه الهارب إلى الشرق وتابع زحفه جنوباً وأرسل كتيبة من الفرسان على رأسها قائده بارمينيو على طول وادي العاصي لاحتلال دمشق مقر أركان الفرس في سورية، أما هو فسار في محاذاة الشاطىء، ففتحت ماراثوس وأرواد وجبيل وبيروت أبوابها في وجه الفاتح الجديد الواحدة تلو الأخرى، وأكثر من ذلك فإن ملك أرواد الذي كان يملك على مارثوس وعلى بعض مدن أخرى في المنطقة بعث بابنه على رأس وفد لملاقاة الفاتح العظيم. وعندما مثل بين يديه وضع على هامة الاسكندر تاجاً من الذهب، بينما صيدا التي كانت قد تحولت إلى ركام إثر الثورة التي قامت بها ضد الفرس لم تكن في وضع تستطيع فيه إبداء أية مقاومة. وقد عرض الاسكندر على اثنين من وجهائها الذين استضافوه وكرموه، أن يتوج أحدهما ملكاً على المدينة. ولكن الرجلين أبيا باعتبار أن هذا العرض مخالف لعرف المدينة إذ لا يحق لأحد من الشعب أن يحمل التاج ما لم يكن ينتسب إلى العائلة المالكة.

هزيمة صور

غير أن المدينة الفينيقية الوحيدة التي أبت الانصياع للفاتح المقدوني هي صور إذ سجل التاريخ بمقاومتها لزحف الاسكندر آخر انتفاضة للروح القومية الفينيقية، تحطمت بعدها التقاليد القديمة إلى الأبد ولم تعد الروح القديمة تثبت نفسها أبداً.

فكانت صور سيدة الشاطىء اللبناني، تاريخها مليء بالبطولات تحدّت جحافل شلمناصر وسرجون ونبوخذ نصر وكانت انتصاراتها في الحروب مبعث يقين

أن هذا العدو المقدوني الجديد الذي لا نعرف عن أمره شيئاً لم يقهر المدينة الفخورة، هذه الجزيرة الرابضة في البحر، أرض الأساطير القديمة تحكي قصصاً كثيرة من تصدير الحرف، لصناعة الصباغ الأرجواني والزجاج. وتحمل أسماء أبطال من إليسار لقدموس وهنيبعل. كانت تبعد نحو ٦٠٠ متر عن الشاطىء وبقيت جزيرة حتى سنة ٣٣٢ ق.م. عندما حاصرها الاسكندر المقدوني لمدة ٧ أشهر ووصلها بالبر بسد بلغ عرضه بتأثير الرمال التي قذفها البحر خلال ٢٣ قرناً مئات الأمتار، واتخذ شكل شبه جزيرة. ويقول المؤرخون أن التاريخ لم يعرف بكل مراحله مدينة قامت ببطولة مثل مدينة صور التي جابهت كل الحروب المتتالية إن كان سياسياً أو عسكرياً من أشوريين وبابليين وكلدانيين وفارسيين ويونانيين. وكان جميع الذين حاربوها يعتمدون طريقة قطع مياه الشفة التي كانت تصل الجزيرة لإجبارها على الاستسلام. ولكن على الرغم من ذلك كان السكان يشربون من مياه الخزانات.

صور الأبية التي عصيت على الجميع انهزمت بعد مناوشات وحصار دام ٧ أشهر أمام فتوحات الاسكندر الذي وصل الجزيرة بالبر بسد عرضه نحو ٦٠ متراً بعدما صمم من أن يجعل من هذه المدينة التي جرأت على مقاومته أمثولة لغيرها، فشرع يردم البحر غير آبه للخسارة الجسيمة في الأرواح البشرية واستعمل لردمه حجارة ركام البيوت التي هدمها في صور البرية، أما الأخشاب فاقتطعها من غابات لبنان المكسوة بالأشجار وكان بناء هذا السد بطيئاً يتقدم نحو الجزيرة قيراطاً بقيراط وكان يقيم فوق رؤوس العمال ستائر من جلود ليقيهم شر النبال والحجارة التي كان يقذفهم لها حراس الأسوار في صور البحرية الذين لم تقتصر مقاومتهم على استعمال القوس والمقلاع، ولم يكتفوا بإرسال الغواصين لعرقلة أعمال البناء في السد وإنما أنشأوا مواكب نار صغيرة محملة بالزفت والكبريت ومواد أخرى شديدة الاشتعال لقذفها على العمال وأدوات البناء الخشبية.

وكانت صور في هذه الأثناء تتوقع المساعدة من شقيقاتها في الشمال ولكن هذه عوضاً عن ذلك، وضعت سفنها تحت تصرف الفاتح، كما أنها كانت تتوقع المساعدة من ابنتها البعيدة قرطاجة حيث بعثت شيوخها ونساءها وأطفالها إليها ولكن أملها خاب هنا أيضاً. وهكذا تعرضت المدينة إلى أصول وأقسى حصار

عرفته في تاريخها المديد. فظلت ترد هجمات المهاجمين العنيفة حتى استسلمت في منتصف تموز عام ٣٣٢ ق.م. ليكون هذا التاريخ أول هزيمة لصور تفقد بنتيجتها استقلالها الذي حافظت عليه قروناً عدّة وتفقد نحو ثمانية آلاف من رجالها سقطوا في المعركة في حين صلب المقدونيون ألفي رجل على الشاطىء المقابل، وباعوا في سوق النخاسة ٣٠ ألف نسمة ـ وهذه عادة شائعة في الحرب ـ في حين هرّب البحارة الصيدونيون خلسة جماعة من أهالي المدينة متذكرين رابطة النسب بينهم وبين أهل صور. أما الإسكندر فسار على رأس جنوده مرتدين كامل أسلحتهم ودخل هيكل ملكارت الذي لجأ إليه بعض السكان، ومن جملتهم حامي المدينة ملكها عازيملكوس وقدّم ذبائح الشكر. وأقام المقدونيون بعدها حفلة ألعاب رياضية وسباق بالمشاعل. والذي دفع الاسكندر لفعل المستحيل لاحتلال صور اعتقاده بأن حضارة اليونان تعود بالأصل لصور وأن الأبجدية دخلت اليونان عندما كان قدموس ابن صور يفتش عن أخته أوروبا التي خطفها كبير الآلهة عندما ظهر على صورة ثور في الوقت الذي كانت تلعب مع وصيفاتها. وهنا يعتقد أن قدموس أطلق اسم أوروبا على القارة الأوروبية خلال رحلته للبحث عن شقيقته. وبعد ١٧ عاماً قامت صور من تحت الأنقاض واستعادت زعامتها على المدن الفينيقيّة وأصبحت مرفأ مهماً لصناعة السفن كما أصبح يقام فيها مهرجانات واختفالات رياضية كبيرة كل ٥ سنوات.

وقبل أن يحكم الاسكندر سيطرته على صور وردته رسالة من داريوس يقترح فيها اقتسام الامبراطورية بحيث يكون نصيب الاسكندر البلاد الواقعة غرب الفرات وابنة داريوس كزوجة وثروات مادية، وأشار بارمينيو عليه بقبول هذه الصفقة مشيراً إلى أنه لو كان مكانه لما كان تردد، فأجابه الاسكندر: «وهكذا كنت أفعل أنا لو كنت بارمينيو».

مواصلة الزحف

بعدما خلف الاسكندر صور وراءه مدينة مدمرّة أكلتها النيران تابع زحفه نحو غزة إحدى المدن المشهورة التي احتلها الفلسطينيون وكانت مركزاً تجارياً مرموقاً لأنها كانت شبه مستودع للبضائع الثمينة المستوردة من شبه الجزيرة العربية (البخور

والتوابل) فلم تكترث غزة بمصير صور بل قاومت ببطولة لا تقل عن بطولة هذه الأخيرة إلا أن حصارها لم يطل أكثر من شهرين فقد استسلمت وبيع أهلها بيع العبيد، وجرّ قائدها حول أسوار المدينة وهو موثوق بعربات الاسكندر الذي أصيب أثناء الحصار بجرح بسيط كما أصيب في ايسوس (المعركة الأولى) واستولى الفاتح على مخازنها الضخمة.

إخضاع مصر وبابل

وبسقوط غزة دق مسمار آخر في نعش الامبراطورية الفارسية في شرق المتوسط ومهد السبيل للفاتح للتقدم نحو مصر التي لم تقاوم بل كانت الحرب بالنسبة إليها استبدال غازٍ جديد بغازٍ قديم (أي الفرس). وأثناء إقامته في مصر وضع الاسكندر أسس الإسكندرية المدينة الساحلية التي لا تزال تحمل اسمه، وزار الإله آمون الذي اعتبر معادلاً للإله جوبيتر بعد ذلك في الواحة التي تدعى اليوم واحة سيوه في الصحراء الليبية على بعد نحو مائتي ميل من الحدود المصرية وسماه الكاهن الأعلى كابن الإله. وهاتان الخطوتان كانتا تنطويان على أهمية بالنسبة للمستقبل أبعد مما كان باستطاعة صانعهما التنبوء به. وكانت عملية الجمع بين فكرة الألوهية وفكرة الملكية قد أدخلت إلى العالم اليوناني ـ الروماني وتوطدت أخيراً فيه. وقد برزت الاسكندرية بالتالي لتصبح مقرّ الثقافة الهلينيّة والوريثة الشرقية لأثينا واعتبر إنشاء هذه الميناء في أقصى الشمال الغربي للدلتا أكثر أهمية من مجرد فتح مصر من الوجهة التاريخية.

انتصارات الاسكندر العديدة زادته اندفاعاً لإكمال ما بدأه، ففي ربيع سنة ٣٣١ تابع زحفه في اتجاه الشرق ماراً في سهل البقاع ووادي العاصي متجهاً نحو الفرات ثم نحو بلاد ما بين النهرين وبنهر دجلة في نقطة تقع شمال موقع نينوى القديمة حيث كان الجيش الفارسي آخر جيش حشده ملك من سلالة الاخمينيين التي أنجبت قورش وداريوس العظيمين في المرصاد فوقعت المعركة بينه وبين الاسكندر في السهل الواقع بين نينوى وأربيل. وكان النصر فيها لهذا الأخير (٣٣١). أما داريوس فقد نجا مرة أخرى من المعركة بنفسه وفرّ هارباً، لكن

الاسكندر هذه المرة تبعه إلى أكتبانا عاصمة ميديا القديمة، وهمدان الحديثة وهناك اغتاله متآمران (٣٣٠) فما كان من الاسكندر إلا أن أعلن نفسه وريثاً شرعياً لآخر ملوك الفرس، وأرسل جثته إلى برسبوليس لتدفن باحتفال ملكي.

وقبل أن يتوجه إلى أكتبانا كان هدف الاسكندر التالي مدينة بابل مقرّ الحكومة المركزي البالغ ارتفاع أسوارها ثلاثمائة قدم، والانتقام لتدمير المعابد اليونانية في أثينا من جانب أحشويرش الفارسي، فدخل بابل مكرماً بعدما استقبله كهنتها الوطنيون وموظفوها الفرس بأكاليل الزهور والهدايا. واستولى على كنوز كثيرة لم تكن ذا أهمية أمام الثروات الخيالية التي اختزنها الأباطرة الفرس في مقرهم الصيفي سوزا التي سقطت بيد الاسكندر في ما بعد. ومن سوزا توجه إلى برسبوليس عبر جبال وعرة فنهب كنوزها وأشعل النار بالقصر الملكي الذي شيده داريوس ثم توجه إلى أكتبانا حيث فرّ داريوس عبرْ وادي برسبوليس على رأس كتيبة سريعة. وغير آبه بالجيش المنهوك وقواده المتعبين، تابع الاسكندر زحفه شرقاً نحو نهر سيحون وانكفأ جنوباً ماراً بمدينة كابل إلى البنجاب في شمال الهند عام ٣٢٦ ما دفع ببعض جنوده إلى التمرد والبعض الآخر إلى التذمر فقفل راجعاً إلى مدينة بابل ليجعلها عاصمة امبراطوريته الشرقية وانصرف إلى الملذات والشرب حتى الثمالة. وأخذ يفكر بفتوحات جديدة. غير أن حمى خبيثة هاجمته وهو في قصر نبوخذ نصر فتوفي في شهر حزيران عام ٣٢٣ قبل أن يكمل عامه الثالث والثلاثين مخلفاً وراءه سجلاً حافلاً بالبطولة والشجاعة والخيال اللامتناهي ودخل عالم الأسطورة فأصبح شخصية تدور حولها أقاصيص الأبطال، وقد أشار إليه القرآن كأنه مكلّف برسالة إلهية ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً، إنا مكّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ (سورة الكهف: آية ٨٢ وما يليها).

روابط أبدية بين الشرق والغرب

أبى الاسكندر أن يربط أوروبا وآسيا لجسر من خشب أو بروابط تافهة عرضة للزوال كما حاول أن يفعل زركسيس الفارسي (أحشويرش)، فعمل على إقامة روابط أبديّة مبنيّة على امتزاج الأفكار والمؤسسات الإغريقية بالمدنية الشرقية لينشأ عن هذا الاندماج مدنية جديدة نشيطة تعرف بالمدنية الهلينية. وكانت عملية التداخل الثقافي والتجاري توطدت أسسها قبل عهده، إلا أن فتوحاته زادت من سرعتها ازدياداً كبيراً، بعدما رافق التجار الفينيقيون حملته العسكرية ضد بلوخستان في حين لم يتوان البحارة الفينيقيون عن تقديم المساعدات للجيش الإغريقي لتجتاح بذلك البضائع الإغريقية والسلع أسواق الشرق الأدنى وتتسرب التيارات الفكرية والحضارية وقد أعطى الاسكندر بنفسه مثالاً على مزج الدم اليوناني والآسيوي بزواجه من ابنة داريوس الأميرة روكسانا واثنتين غيرها من الأسرة الملكية الفارسية في سوزا. وقد شجع قواده وجنوده على أن يحْذوا حذوه بالزواج من نساء آسيويات، ليربط القارتين بروابط المحبة والزواج الشرعي والنسل المشترك وهذا ما دفعه إلى الصلاة في مأدبة حضرها تسعة آلاف مقدوني وفارسي على ضفاف دجلة لأجل وحدة القلوب ودولة مشتركة ليكون بذلك أول رجل عملي عظيم حلم بمجتمع لا وجود للحواجز فيه. وحاول تحقيقه مع أن الأنبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية، وتصوروا أخوّة الإنسان.

وفي سبيل تحقيق حلمه بتأسيس دولة عالمية واحدة لها شرائع موحدة ولغة واحدة عمد الاسكندر إلى إنشاء أكثر من ٧٠ مركزاً لتستوطنها جاليات مقدونية تحولت في ما بعد إلى مدن بفضل ورثته السلوقيّين والبطالسة. وعلى ممر الأيام زاد عدد سكان الإغريق، وكان لبناء هذه المدن ثلاثة أغراض: مراكز سكنية للمحاربين المسرحين، نقاط عسكرية على خطوط المواصلات ومراكز نشر التأثير

الثقافي الهلّيني.

ولا بد أن الاسكندر كان تلميذاً جديراً بأستاذه أرسطو ويقال أنه ذكر في رسالة بعث بها من آسيا إلى أستاذه وفيها: «بالنسبة لي أفضل أن أتفوق على الآخرين في معرفة الأحسن من أن أتفوق عليهم في مدى سلطتي وممتلكاتي». وسرعان ما أصبحت اللغة الإغريقية تدريجياً لغة الفكر الراقي في جميع أنحاء العالم المتمدن. وعندما ظهر السيد المسيح بعد انقضاء ثلاثة قرون على الاسكندر بشّر برسالته بالآرامية، لكن الآباء عكفوا على نقلها إلى اللغة الإغريقية الشائعة لتصبح في متناول الطبقات المفكرة.

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية في لبنان بعد تطعيم فينيقيا بالحضارة اليونانية وتجنيد السكان من مختلف الجنسيات. وتابع هذه الحركة السلوقيون وقد نبغ في اللغة اليونانية لبنانيون كثر أمثال أنتيباتر الصيدوني في الشعر وفيلون الجبيلي في التاريخ وزينون في الفلسفة. وفضلاً عن ذلك ساهم اللبنانيون بقدر كبير في تطوير الفكر اليوناني. فزينون اللبناني الأصل (ولد في قبرص) كان مؤسس المدرسة الرواقية وقد برع في شرح نظريات أفلاطون حول السلم والمثالية. ونحا نحوه بيوتس الصيدوني، وقاد المدرسة المشائية ديودورس الصوري والمدرسة الأبيقورية زينون الثاني فكان اللبنانيون قادة أكثر المذاهب الفلسفية التي اشتهر بها الإغريق.

وفي حقل العلوم برز مارينوس الصوري مؤسس علم الجغرافيا الرياضية، أما في قرطاجة (ابنة صور) فلمع عدد لا يحصى منهم: تيرنس الشاعر الهزلي والقديس أغسطينوس أشهر آباء الكنيسة.

الفصل الثاني

إنقسام الإمبراطوريّة اليونانية وتأسيس الدولة السلوقية

تمزق الامبراطورية اليونانيّة

بعد موت الاسكندر الفجائي اندثرت الامبراطورية اليونانية الشاسعة التي أنشئت بلمحة بصر، وتمزقت بعدما تسابق خلفاء الاسكندر للفوز بأفضل أقسامها عبر حروب طويلة ومريرة. ويروي التاريخ أن الاسكندر لم يكن له ولد وكانت زوجته روكسانا حامل فقام بنزع خاتمه من اصبعه وقدمه إلى برديكاس أحد أمرائه وأمر بأن يكون الأكثر استحقاقاً خليفة له وكان له ما أراد لفترة وجيزة إذ اجتمع القادة واتفقوا على تعيين برديكاس وكيلاً بانتظار أن تلد روكسانا، الأمر الذي رفضه بشدة العسكر منادياً بتتويج شقيق الاسكندر أريدي المعروف بشره (. . .) وضعفه وغروره ملكاً عليهم.

وقسم برديكاس ممالك سيده إلى أربع وثلاثين منطقة وزعها على القادة غير أنه كان مترئساً على سائرها ومن هؤلاء القادة برز بطليموس في مصر وسلوقس في مرزبانة بابل وأنتيغونوس في آسيا الصغرى وأنتيباتر في مقدونيا وكان الأول الأكثر حكمة وذكاء بين القادة الأربعة وسلوقس أقدرهم.

وعندما أنجبت روكسانا ولداً أطلق عليه اسم الاسكندر تيمناً بأبيه، وأخذه برديكاس، وبدأ يعلمه فحسده رفاقه على ذلك، منهم: حاكم مقدونيا أنتيباتر الذي كان يكره برديكاس. فعمد بعدما حارب الاثينيين وقهرهم إلى محاربة سيده الذي توفي بعد ذلك عندما قام جنوده عليه وقتلوه في مصر. وأكمل طريقه نحو مصر لمحاربة بطليموس ٣٢٠ ق.م. وعندما تولى الوكالة أمر أوليمبياس أم الاسكندر وكنتها والملك الصغير بالهرب إلى أبيروس لأنه كان عدواً لها في زمن فيليبس زوجها. ولما توفي أنتيباتر خلفه صديقه بوليسرشون ممّا أثار موجة من الاستنكار الشديد من جانب كاساندر نجل انتيباتر الذي حارب شون للموت.

وبينما كان القادة الإغريقيون يقاتلون بعضهم بعضاً أخذ أنتيغونوس الذي كان

من قواد الاسكندر المشهورين بالشجاعة والإقدام بتوسيع فتوحاته في آسيا فخاف رفقاؤه من قوته واجتمعوا لمحاربته فكسرهم جميعاً سنة ٣٠٧ ق.م. ونصب نفسه ملكاً على البلاد لكن انتصاراته لم تدم إذ قتل سنة ٣٠١ وفرّ ابنه ديمتريوس ليجتمع بعد ذلك القادة ويتفقوا على تقسيم المملكة إلى أربعة ممالك كبرى عدا بعض ولايات صغيرة.

الأولى: مصر مع برّ العرب وفلسطين التي هي جزء من سوريا برئاسة بطليموس سوتير. **والثانية**: مقدونيا وبلاد اليونان تحت إمرة كاساندر. **والثالثة**: تراكيا وبيسينيا وبعض أجزاء آسيا الصغرى تحت إمرة ليسيماخوس. **والرابعة**: بقية الممالك من البحر الأسود إلى نهر لاندوس في الهند تحت إمرة سلوقس، وسمّيت مملكة سوريا وكانت أعظم كل تلك الممالك.

تأسيس الدولة السلوقية ـ السورية

وقبل أن تنتقل المدن الفينيقية إلى يد سلوقس الأول مؤسس المملكة السلوقية في سورية كانت مثل كرة تتقاذفها الأيدي تنتقل من قائد إغريقي إلى آخر، وكان أول قائد ولي سوريا بأجمعها لاومدون ثم انتقل لبنان وسهل البقاع (سورية المجوفة) عام ٣٢٠ ق.م. إلى بطليموس الأول مؤسس حكم البطالسة في مصر، لتنتقل فينيقيا بعد خمس سنوات إلى يد أنتيغونوس حاكم آسيا الصغرى، وفي عام ٢٩٦ إلى يد سلوقس الأول لتعود عام ٢٩٦ مرة أخرى إلى بطالسة مصر حتى سنة ١٨٩، أحياناً بكاملها وأحياناً أخرى ببعض أقسامها، في حين ظلت الحدود بين لبنان وسوريا مائعة عرضة للتغيير. إذ كانت حدود لبنان الشماليّة في عهد بطليموس الأول (توفي ٢٨٣) على محاذاة أرواد وجنوب حمص لتتقلص عام ٢٥٠ إلى جنوب بيروت ثم تعود لتمتد بعد ٢٥ سنة شمالاً إلى أرواد ولتصبح فينيقيا بين قوتين متحاربتين: البطالسة إلى الجنوب والسلوقيين إلى الشمال.

استقلال ذاتي لصيدا

وبرزت في العهد البطليموسي الذي دام ٨٨ عاماً (٢٨٦ ـ ١٩٨) مدينة صيدا لتعود هذه للمرة الثالثة في تاريخها إلى احتلال مركز أولي في هذه المنطقة على مسرح الحياة السياسية. فبدأت بصك نقود باسمها، وما دل على استقلال الصيدونيين الذاتي أنهم كانوا يطلقون على حكامهم لقب «ملوك»؛ إذ اتبع السلوقيون نظاماً للحكم كان تتمة لنظام الإيالات الفارسية التي كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي الذي لا يتعارض مع الحكم المركزي ومن ملوك صيدا تبنيت الذي كان يلقب نفسه بكاهن عشتروت وهو اللقب الذي استعمله لوالده أشمنعزر، أما أشمنعزر الثاني (٢٨٠ ق. م) فقد وسع امبراطوريته صيدا لتشمل صور ويافا

وقد عثر على ناووسه المنحوت على صورة إنسان في المقبرة بالقرب من مغارة طبلون في عين الحلوة إذ أن أجمل النواويس المنحوتة وجدت هناك فالحفريات في هذه المغاور بدأت عام ١٨٥٥. وعام ١٨٦٠ قام العالم الفرنسي أرنست رينان خلال جولته لمدن فينيقيا بحفريات واسعة النطاق في مغاور طبلون واستخرج منها نواويس عدة. ثم تعاقب في التفتيش عن الآثار في هذه المنطقة كل من مندوب المتحف السلطاني التركي مكريدي بك والدكتور كونتو ومدير المتحف العثماني حمدي بك وتم استخراج نواويس ضخمة، منها ناووس محفور عليه بدقة رسم سفن فينيقية مشرعة السواري تشبه الرسوم التي وجدت في معابد الفراعنة في الكرنك ونجد هذا الناووس اليوم في متحف بيروت وهو يعد من النواويس الثمينة.

وعام ١٨٨٧ استخرج حمدي بك نواويس ثمينة من محلة القياعة عثر عليها بالصدفة منها أربعة نواويس يونانية من الرخام: الأول ناووس المرزبان لأن الصورة التي نقشت على جوانبه تمثل مرزباناً والثاني الليقي نسبة إلى هندسة أهل ليقا، والثالث الباكيات دعي كذلك لما نقش على جوانبه من النساء النائحات وعددهن ١٨ يمثلن الحزن في هيئاته المختلفة والرابع ناووس الاسكندر الذي يعد من أبهى وأجمل النواويس اليونانية وسمي كذلك لأنه نقش على جوانبه مآثر الاسكندر وحروبه مع الفرس.

كما استخرج حمدي بك من المحلة نفسها وفي السنة عينها ناووسين ملكيين الأول لتبنيت والثاني لابنة اشمنعزر الثاني نقش على غطائه المصنوع من الحجر البركاني أطول نقش فينيقي على قبر وهو موجود اليوم في متحف اللوفر، ولا تختلف محتويات هذا النقش عن محتويات الكتابات العادية التي وجدت على القبور وهي إنزال اللعنات على من يمس القبر بسوء، والإشارة إلى أن القبر فارغ لا كنوز فيه تستحق السرقة. كما عثر على ناووس يرجح أنه كان للملكة عمعشترت أخت تبنيت وزوجته وهذه النواويس الملوكية هي على الشكل المصري مصنوعة من الحجر الأسود والقاسي.

وقد وجد في ناووس تبنيت تاج الملك وهو من الذهب الخالص وقلائد

ذهبية وأساور وحلق ذات أحجار كريمة، فضلاً عن جثته محنطة بسائل لونه أسمر له رائحة ذكية، لم يستطع العلماء أن يكتشفوا تكوينة السائل لأن أحد العمال في الآثار أوقع بالخطأ الناووس فانسكب السائل العجيب وضاع سر الاحتفاظ بجثة تبنيت للأبد.

ونذكر أخيراً في هذا الإطار أن أحد مؤسسي الكلية الإنجيلية في صيدا الدكتور فورد وجد أشياء كثيرة في حدائق الكلية ومن جملة ما عثر عليه ٢٥ ناووساً على الشكل المصري أهدتها زوجته في بعد للمتحف اللبناني.

الفصل الثالث

توسع الدولة السلوقية

الدولة السلوقية كانت امتداداً بل مملكة للامبراطورية اليونانية، فمنشئها سلوقس بن ديمتريوس نيكانورس الملقب بـ «نيكاتور» أي المنتصر (٣١٢ ـ ٢٨٠ ق. م)، كان من كبار القادة في جيش الاسكندر وبرز اسمه للمرة الأولى في الحملة الهندية التي قادها الاسكندر الذي أحبه واعتمده في المهمات وعند اقتسام الامبراطورية، سماه برديكاس والياً على بابل في حين ألحق منطقة سورية ـ فلسطين بآسيا الصغرى، واستمر في ولايته حتى طالبه أنتيغونس بدفاتر الجباية كأنه خاضع له فأبى سلوقس وفرّ إلى مصر ملتجئاً إلى بطليموس فأنجده هذا على العدو في معركة حامية أمام غزة عام ٣١٢ ق.م. ليسترجع بذلك بابل التي كان قد خسرها ويضم إليها ولايتي أسور ومادي وفلسطين ويحكم بلاد فارس ولكن آسيا العليا التي سار منها إلى الهند لاستخلاص البلاد التي كان الاسكندر قد استولى عليها مسجلاً انتصاراً تلو انتصار ولما عاد منتصراً سار على رأس جيش جرار لقتال أنتيغونس فأحرز نصراً آخر عليه في إيسوس (فريجيا الكبرى) وقتله، وأضاف مملكته إلى بلاده وكانت تضم سورية وفريجيا وأرمينية وما بين النهرين لتكون سنة ٣١٢ ق.م. ميلاد الدولة السورية وبدء التاريخ السلوقي.

وكان سلوقس متزوجاً بابنة فارسية تدعى بامي وعندما توّج ملكاً تزوج أيضاً بابنة ديمتريوس بوليكريت أحد ملوك آسيا الصغرى تدعى على حد قول المؤرخين استراتونيكي، وذلك إرضاء لأبيها، لكن ابنه أنطيوخس الأول (٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م.) أغرم بزوجة أبيه الجميلة المنظر وتعلق بها حتى مرض ولزم الفراش، وكان أبوه متعلقاً جداً به. فلم يترك طبيباً إلا وأتاه به لكنهم لم يعرفوا علّته وكان عنده طبيب حاذق يدعى «أراسيستراتوس» فلما رأى الوليد عرف أنه يعشق امرأة أبيه فقام ودخل على هذا الأخير وأعلمه أن ابنه عاشق فسأله الملك: بمن؟ قال الطبيب: هو عاشق امرأتي، فأخذ الملك يرجوه ليعطيه امرأته قائلاً: «أيحل لك أن تهلك هذا الوريث الوحيد لسلطنتي المتسعة ليأخذها الأجانب بعد ذلك فرد الطبيب: لو كنت

مكاني هل تعطيه امرأتك استراتونيكي؟ فقال له الملك: ليس فقط استراتونيكي بل والتاج أيضاً. فما كان من الطبيب إلا أن أخبره الحقيقة فعمد على الفور سلوقس إلى امرأته وأخذ يستعطفها لتتزوج من ابنه حتى قبلت ونال أنطيوخس الشفاء التام فأعطاه أبوه التاج. وذكر بعض المؤرخين أن الفرس واليونان كانوا يتزوجون بأشد نسيباتهم قرابة حتى أنهم كانوا يتزوجون شقيقاتهم.

وفي غضون الحكم السلوقي وسّع بطليموس حدود مملكته إلى خط يقع شمال أرواد وجنوب حمص ليتراجع درجة كبيرة حتى جنوب بيروت ودمشق نحو ٢٥٠ ق.م. قبل أن يتقدم مرة ثانية في شمال أرواد بعد خمسة وعشرين عاماً. أما في الشرق فوسّع سلوقس حدود مملكته السورية لتضم قريباً القسم إمبراطورية الاسكندر إذ شملت فارس حتى نهر جيحون Oxus في الشمال والسند في الجنوب. وعلى الرغم من أن مملكة سلوقس كانت من أعظم الممالك التي قامت على أنقاض ممتلكات الاسكندر في قوتها واتساعها، لم يكتف هذا القائد الذي يفوق طموحه طموح الاسكندر بذلك، بل اجتاز الهلسبونت في أواخر ٢٨١ مصمماً أن يضم مقدونيا إلى ممتلكاته الواسعة مستفيداً بذلك من شغور العرش بموت قائد آخر من قواد الاسكندر وهو ليسيماخوس إلا أنه قتل هناك ليخلفه ابنه أنطيوخس الأول سوتر.

قبل وفاته اتبع سلوقس نشر الهلينية التي وضعها الاسكندر فبنى أكثر من ١٦ مدينة تحمل اسم والده أنطيوخس وتسع مدن تحمل اسمه وخمساً تحمل اسم أمه لاوديسا وثلاثاً باسم زوجه البكثرية آباما. أما سلوقية الواقعة على بعد خمسة أميال شمال العاصي والتي بنيت لتحمي مصب هذا النهر لتكون ميناء لإنطاكية فهي إما من بناء سلوقس أو أحد خلفائه المباشرين وقد نقل جثمانه ودفن فيها لتصبح بعد ذلك مدفن السلالة. ومن المدن التي سميت لاوديسا (اللاذقية) وأباميا على العاصي (أفاميا لدى الجغرافيين العرب) وتعرف اليوم بقلعة المضيق، كانت من المراكز المهمة والمزدهرة في المملكة السورية إذ احتضنت الجيش والخزينة الحربية واصطبلاً تابع للدول يضم ٣٠ ألف فرس و٣٠٠ حصان فضلاً عن أنه كان بمثابة

مستودح تربى فيه فيلة الحرب وتدرب.

بموت مؤسس المملكة السلوقية كادت الامبراطورية التي بناها أن تختفي من الوجود وهي في ربيع عمرها لولا أنطيوخس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧) الذي كان يعتبر أعظم فاتح سلوقي بعد سلوقس، وبعهده استولى السلوقيون على فينيقيا (١٩٨ ق.م.).

فسلوقس أخذ كل سورية باستثناء صيدا وصور، وعندما استبد، رأى من الضرورة أن يخضع فينيقيا ويستخلصها من بطالسة مصر إلا أنه لم ينل هدفه إذ قتله واحد من خواصه فخلفه في الملك ابنه أنطيوخس الأول سوتر (٢٨٠ ـ ٢٦١) وكان مالكاً في ما وراء الفرات فلما تهيأت الظروف تجهز بجيش كثيف للأخذ بثأر أبيه فانكسر وتشتت شمله وعاد إلى بلاده فعلم بطليموس بذلك وقرر أن يستغل ضعف خصمه فبعث يقول له: «إن المعاهدة المعقودة بين والدي وأبيك تبيح الأرض الواقعة بين مصر ودمشق لدولة البطالسة، فإذا لم تسلمني الأرض تحملني على إشهار الحرب». فرفض انطيوخس ممّا دفع بصاحب مصر إلى إرسال قائد جنوده فيلادلفيوس إلى أبواب دمشق التي كانت لأنطيوخس، وكان اليهود الذين يسكنونها قد كرهوا حكومة هذا الأمير فسلموا الشام للعدو الذي كان يحاصرها فانكسرت جموع أنطيوخس عندما لم تلق أي دعم من جيرانها وعادت منكسرة. ولما اقترب من بلاده وعرف بموت حبيبته استراتونيكي زاد حزنه وكدره وقرر إقامة الصلح مع الملوك الذين يحاربهم. إلاّ أن الغالبين جاؤوه على رأس جيش كبير ليزرعوا في الأرض فساداً فقرر الملك انطيوخس محاربتهم وجيّش جيشاً جرّاراً مع رديف من الفيلة، فلما بلغوا المصاف تركت الفيلة على المركبات فأجفلت خيولها فانكسر العدو وانتصر أنطيوخس نصراً تاماً. غير أنه لم يسر به، بل قال لرئيس عسكره نبوذوكيوس والجند الذين أتوه وعلامة النصر في أيديهم: إنني لا أنسى طول عمري العار الذي يلحق بنا لخلاصنا بواسطة ستة عشر ميلاً. وغداة هذا الفوز استطاع أنطيوخس طرد البرابرة الغالبين في البلاد ولقبه جماعته بلقب سوتر ومعناه «مخلّص» وقد ذكر صبحي باشا في «تكملة العبر» أنه اطلع على مسكوكات قديمة منقوش عليها: «أنطيوخس أبولندس سوتر»، وتعريبها أنطيوخس المخلّص مثل

أبولون. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأمير هو من معبودات تلك الأمة الوثنية.

وظلت الدولة السلوقية تراودها فكرة الاستيلاء على بلاد فينيقيا لا سيّما بعد امتداد امبراطوريتها وعظمتها وبناء مدينة انطاكية المنيعة على ضفة العاصي، ومدينة سلوقية على الفرات وأخرى باسمها على المتوسط. لكن دولة البطالسة كانت مسيطرة على الساحل الفينيقي، وكان ملوك سورية يحكمون بلاد فارس أيضاً ورأى أنطيوخس سوتر أن استيلاء بطليموس فيلادلفيوس على الشام عار عليه فاستعان بصهره صاحب سبارتا ليدعمه بالجنود والعتاد أثناء محاصرة دمشق التي استولى عليها وطرد جيوش المصريين منها. لكن الشعور بالانتصار لم يدم طويلاً إذ ثار عليه والي برغما، أومنس، وخلع نير طاعته فسار إليه بجيش جرار وحاربه فدارت الدائرة على أنطيوخس حيث قتل وانهزم جيشه عام ٢٦١ ق.م. ليخلفه ابنه انطيوخس الثاني تيوس (٢٦١ ـ ٢٤٦) وكان ملكاً رديئاً، سيّىء الخلق يدمن الخمر ليلاً نهاراً ويهمل مصالح الملك، فألقى بزمام الحكومة إلى شقيقين يقال لهما: أرستوس وثميزون ووهب مناصب الدولة لشبان غير متدربين فأخلوا بنظامها وكادت تسقط تحت سوء التدبير إلى أن حدثت ثورة في بيتينيا وهي ما يعرف اليوم بلواء خذاوندكار، وقد بدأت بالصراع على الكرسي الملكي، إذ بعد وفاة ملكها الذي كان قد أقام بطليموس فيلادلفيوس صاحب مصر وصياً يفض مشاكل خليفته جيّش أنطيوخس ألوية برية وبحرية وسار إلى تلك الأطراف فحارب بيزاندون وضايقها. ومع أن الارتباك كان محيقاً بجنود سورية كادت المدينة أن تسلم لو لم تنجدها أربعون سفينة من ذات الطبقات الثلاث فانسحبت جنود سورية عن الحصار وسارت عساكر ثراكيا لمقابلة العدو لأن مقدونيا وثراكيا كانتا قد انشقتا عن حكومة سورية لكن التاريخ لم يفدنا شيئاً عن تلك المحاربة ونتيجتها مع أن اقتران أنطيوخس بابنة فيلادلفيوس واشتراطه على نفسه قيام أولاده منها أولياء لعهد ملكه وطرد زوجته القديمة سلوقس بن لاوذيكس وابنه أنطيوخس ونفيهم جميعاً، دليل فسره المؤرخون على أنه انكسار لأنطيوخس وانخذاله في هذه الحرب.

ولقب أنطيوخس بـ «ثيوس» أي إله مخلّص جاء عندما تمرّد تيماركوس والي

مدينة ملتوس على أنطيوخس وبدأ يعذب الأهالي وينزل بهم أذىً كبيراً، فنهض أنطيوخس إليه وحاربه فأعانه الأهالي النافرون من تيماركوس فانكسر هذا الوالي واسترجع أنطيوخس المدينة وأفرج عن أهلها الذين اعتبروا خلاصهم من يد الظالم نعمة إلٰهية.

ولما بلغه أن الفرس خرجوا عن طاعته عندما أتى قوم من الفرثيين في أواخر خلافة آل كيان بلاد فارس، وثاروا على الملك واستولوا على المملكة واستقلوا بها عن دولة سورية، عزم أنطيوخس على الإغارة عليهم ليعود بهم إلى الانقياد له. إلا إنه لم يستطع تنفيذ مرامه، ذلك أنه كان قد استدعى إليه أمراته لاوذيكس (التي قيل أنها شقيقته) مع ولديها وترك زوجته المصرية ورنكس مع ولدها الطفل، وبما أن لاوذيكس كانت قد أضمرت له الشر سقته السم في سارديس سنة ٢٤٥ ق.م. وبايعت ابنها سلوقس كالينيكوس بحيلة ثم سارت لقتل كل المصريين الذين أتوا من مصر مع «ضرتها»، وتوجهت إلى انطاكيا لقتل ابن ورنكس التي ما لبثت أن ثأرت لمقتل ولدها فتبعت القاتل الذي أرسلته لاوذيكس، وضربته برمح وبعدما أخطأته أخذت حجراً وضربته به فسقط على الأرض ميتاً، ومرت بعربتها فوق جسمه. ولم يجسر أحد من العسكر أن يدنو منها بشر، بل احترموا شجاعتها. غير أنه بعد وقت غير طويل أشار عليها طبيبها إلى أن تذهب إلى قرية دفنه على ضفة العاصي حيث معبد الشمس ففعلت. وبلغ ذهابها مسمع لاوذيكس فبعثت إليها أشخاصها فقتلوها. وعلم أخوها بطليموس إيوارجيستيس ملك مصر فجهز جيشاً كبيراً وعمارة بحرية كبيرة، وسار سريعاً إلى سورية فخضعت له المدن السورية، بينها صور وعكا اللتان سلّمتا إليه بخيانة قائدهما شيودنس. ولأن الأهالي لم يكن لديهم علاقة بتلك الحوادث، لم يعارضوا دخول بطليموس إلى بلدانهم وأخذوا يسلمون بلدة بعد أخرى. لكن بعض المؤرخين يؤكد حدوث معمعة بحرية بين سفن السوريين والمصريين وأن نيقولاوس أمير سفن المصريين أتى ملتجئاً إلى صيدا. وربما كانت هذه الرواية صحيحة لأن سفن الفينيقيين كانت لا تفوت فرصة كهذه من دون حرب شديدة، فتوغل بطليموس في المناطق الداخلية دون أن يلقى معارضة حتى بلغ نهري الفرات ودجلة. أما لاوذيكس فوقعت بيد بطليموس الذي قتلها، فيما فرّ ابنها

سلوقس كالينيكوس (٢٤٦ ـ ٢٢٦) المالك في سوريا هارباً إلى الأناضول المعروفة بآسيا الصغرى ومكث هناك حتى عودة بطليموس إلى مصر فكتب إلى روما طالباً النجدة متذكراً الود القديم مع الرومان فأجابته مصادقة على المودة وأمدته أزمير ورودس وغيرهما ببعض السفن فسار بها لاستعادة ملكه الموروث. على أن الحظ لم يخدمه في هذه المهمة حيث هبت رياح عاصفة على مراكبه فتكسرت، ووصل إلى البر بعد عناء طويل مع نفر قليل من السفن.

وكان بطليموس قد بعث بابن شقيقته أنطيوخس بن أنطيوخس تيوس حاكماً على كيليكيا وعيّن كستانيوس والياً على سورية. لكن أهل سورية والأناضول عندما علموا بما جرى لكالينيكوس أشفقوا عليه وأمدوه بالمال والرجال. غير أن أهل كليسيريا، أي البقاع، لم ينجدوه لأن الوالي أنطيوخس هراكس كان مقيماً فيها فسار بما جمع من الجند وحارب الوالي وكاد يهلك لو لم ينج بنفسه بسفينة من كيليكيا في مياه العاصي. وما كان أمامه إلا اقتراح عقد اتحاد مع شقيقه أنطيوخس فاجتمعا ووعد أخاه بإعطائه حكومة الأناضول في حال ساعده على استعادة ملكه الموروث. وكان الأناضوليون يحبون حكومة السلوقيين فوافقوا على الاقتراح، في وقت عرف فيه بطليموس باتحاد الشقيقين. فما كان أمامه إلا طلب الصلح والوفاق، فتم ذلك وعقدت العهود وعمل بها نحو عشر سنوات فقط إلى أن طمع أنطيوخس هراكس الذي كان رجلاً شجاعاً، مع أنه حديث السن، بالملك السلوقي فقرر خلع شقيقه. وحشد كل من الفريقين عسكراً وتقاتلا في كيليكيا، فانكسرت جيوش هراكس. غير أنه بعد زمن غير طويل تجددت المعارك بينهما في أنقره وعاد منتصراً غير مسرور، بعدما علم بمقتل شقيقه. وظل آسفاً حتى تأكد له كذب الرواية، وعلم بأن شقيقه كالينيكوس قد فرّ وأتى سورية.

وفيما لم يطمئن محالفو هراكس لانتصاره لأنه كان خائناً شريراً، عزموا على معاداته. فرأى هراكس من الصواب مداواة الجرح بمصالحة شقيقه فعقدا شروط الصلح عام ٢٣٩ ق.م. ثم انصرف لإخماد فتنة عسكره فأكرمهم بالمال وأصلح شأنهم. ولما رأى كالينيكوس أن شقيقه عاهده على الصلح عزم من جانبه على

إخضاع الأشكانيين الذين كانوا قد عصوه في المملكة الفارسية، وكان الملك يومئذ تيرداد الأول، وهو الأرشيك الثاني من الخلافة الفارسية الثالثة. فاتفق تيرداد مع والي بكتريان ثيوذوتيوس حتى جاءهما كالينيكوس فحارباه وانتصرا عليه عام ٢٣٨ ق.م. لأنه انشغل بأمور أخرى؛ إذ كان له شقيقة اسمها استراتونيكي متزوجة برجل يدعى ديمتريوس. فلما رأت أن شقيقها منهمك في محاربة الأرشكيين، وأنه عاد مقهوراً، سارت إلى أهل أنطاكيا وبدأت تحرّضهم على القيام ضده. فلما بلغه ذلك رأى من الضرورة العودة وإخماد الثورة الداخلية قبل الخارجية، ففرت هاربة إلى جهة سلوقية فتعقبها جنود كالينيكوس وقتلوها.

وتنسب هذه الفتنة وزرع بذورها في قلب شقيقة كالينيكوس لهراكس إنفاذاً لأطماعه وسياسته بالاستيلاء على سورية. غير أنه لم يكن في ذلك الوقت قد ارتاح من الثورة الشعبية في الأناضول؛ ولكن عندما تغلب على أثالوس الأول خليفة أومنس حاكم برغما، أراد الغزو فسار إلى مدينة فركيا التي كان السلوقيون قد وهبوها إلى زوجة مهرداد والي بنقس. فلما أتاها هراكس وبدأ ينهبها استاء كالينيكوس لأنه متحالف مع مهرداد، فوقع النزاع وتجددت الحرب بينهما، فانهزم هراكس وفرّ إلى جبال أرمينيا حيث كان قد اتفق مع ملك الأرمن أرساميس، فتعقبه أكيوس وأندروماكوس من أبناء كالينيكوس على رأس جيش وأدركاه مراراً، وحارباه إلى أن اختفى في إحدى مواقعهم مختبئاً بين القتلى حتى أتى الليل، فقام وصعد إلى إحدى التلال المجاورة لساحة الحرب وتحصن فيها. ثم بعث رجلاً إلى أندروماكوس يطلب جثة سيده الذي قتل ليدفنها كما يليق بالملوك. فأجاب أندروماكوس أنه لم يجده بين القتلى. وبعد ذلك، أمر أربعة آلاف جندي بمواجهة عساكر هراكس المشتتة في الجبال وإجبارها على تسليم أسلحتها. لكن هراكس عندما رأى القوّة المهاجمة، أمر جنده بالقضاء عليها، فتمّ له ذلك. ومع أنه انتصر، إلا أنه لم يفز بالمرام، لأن مهماته وذخائره كانت قليلة بحيث لم يستطع الاكتفاء بها، ففرّ هارباً إلى الأناضول حيث خاض فيها حروباً كثيرة كان أكثرها وبالاً عليه، وقيل إنه فرّ إلى بطليموس الذي قرّبه إليه في بادىء الأمر وأقامه من جديد حاكماً على كيليكيا ثم أمر بسجنه في إحدى القلاع؛ غير أنه فرّ منها فالتقاه

بعض اللصوص وقتلوه.

وفيما كان الشقيقان يتحاربان اغتنم الفرتيون (أهالي الفرات) الوضع في المملكة السورية للتخلّص من نيرها، فهزم أرشاق، ملك فرتيا، سلوقس في معركة بعد سنة ٢٤٠ ق.م. بمدة وجيزة. ويعتبر هذا التاريخ بدء التأسيس الحقيقي للسلالة الفرتية.

واهتم كالينيكوس بعائلة شقيقه بعد موته وبتحسين المملكة وتوسيع مدينة أنطاكيا، فأتاها بشعوب من البلدان الأجنبية. ولم يكن في سياسته النظر إلى آسيا الصغرى بل اخضاع الاشكانيين. فسار إليهم وحارب تيرداد أرشاق الثاني فانكسر، وربما أسره بعضاً من الوقت ثم عاد فأطلق سبيله. وعندما رأى عجزه في الحرب أمام الاشكانيين، عقد الصلح فاستقل الفرس استقلالاً تاماً، ثم مات كالينيكوس عام ٢٢٥ ق.م. وخلفه ابنه البكر سلوقس كرونوس (٢٢٦ - ٢٢٣) الذي كان سريع الحركة مع أنه ضعيف البنية؛ لذلك لقب بكرونوس، أي الصاعقة.

الفصل الرابع

ازدهار المملكة السلوقيّة

لم يكد كرونوس يجلس على العرش حتى استولى صاحب مصر على سلوقية وهدد أنطاكيا، ممّا دفعه لجمع جيوشه وتنصيب أخيه أنطيوخس الثالث مديراً لممالكه التي وراء الفرات ووزيره أرمياس وكيلاً في سوريا. ثم تقدم نحو جبل طوروس وإلى المناطق الداخلية. ولما كان ينقصه المال لتأمين مرتبات العسكر، ضجر هؤلاء منه. وقبل أن يداوي الحال بأحسن منها ثار عليه رجلان من ذويه وأعطياه السم وطلبا من أخيوس بن أندروماكوس تولّي العرش، فأبى وقتل الخائنين. لكنه عندما تبوأ المُلك، أخذ بتدبير المهام الداخلية وبدأ يصحّح خللها؛ فأرسل أخاه مولون إلى بلاد مادي وأخاه الكسندرس إلى فارس. لكن بعض المؤرخين استغرب هذه الرواية لأن البلاد الفارسية كانت قد استقلت تحت حكومة الأشكانيين؛ أما بلاد مادي فقد استولى عليها ملك فارس تيرداد بعد استقلالها وضمها إلى حكومة الاشكانيين.

وأرسل أنطيوخس ابن عمه الأصغر أكيوس إلى الأناضول، وأقام رئيس الجيش أبيكنوس أميراً على العساكر الخاصة، وأبقى هرمياس وكيل حكومة أخيه الأول في منصبه مع أنه كان رديء السيرة وخبيثاً ماكراً قاسياً. كذلك، استخف مولون والكسندرس شقيقا أنطيوخس بهذا الأخير، فأظهرا العصيان طالبين الاستقلال. فعلم أنطيوخس بذلك في وقت كان منكبّاً على الاهتمام بشؤون المملكة الداخلية، وكان يرى من الضرورة تحرير الممالك السورية التي كانت قد تسلطت عليها الدولة المصرية. فلما استقل أخواه جمع مجلسه لمناقشة الأمر؛ وبما أن أمير الجيوش أبيكنوس أشار إلى وجوب إخضاع مولون أولاً، عارضه هرمياس من جانبه لأنه كان عدوه الألدّ، ورأى وجوب شن حملة على مصر ثم إرسال جيش لاخضاع مولون العاصي. فوافق كل أعضاء المجلس على اقتراح هرمياس لأنه كان من أصحاب النفوذ في هذا المجلس. ولما أقر الاقتراح بعث أنطيوخس بكتيبة من الجند تحت أمرة كلسنون وثيوذوسيوس إلى مادي لمحاربة

ملك مصر. وخلال هذه الحملة تزوج بابنة مهرداد، وبينما كان يقيم احتفال الزواج وردت إليه الأخبار عن اتحاد مولون وألكسندرس ومحاربتهما جيوشه وانتصارهما عليه وفرار قائدي الحملة اللذين عينهما هرمياس. فانقلبت أفراح العرس إلى مأساة، وندم الملك على اتباعه مشورة هرمياس وعدم الأخذ بنصيحة أبيكنوس.

لكنه مرة أخرى وقع في الفخ، عندما صمم هرمياس الحقود على عناده ورفضه قيادة أنطيوخس الجيش لقتال العصاة لأن ملكاً جليل الشأن كأنطيوخس لا يسير لقتال العصاة بل يقابل «ملوكاً مثله»، ما دفع بأنطيوخس إلى الأخذ بآرائه وبعث بجيش آخر تحت إمرة قسناتاس أحد أصحاب هرمياس لمحاربة مولون. إلا أن جيوش هذا الأخير ادعت في حيلة حاكتها بدقة أن بعض الجنود فروا من العسكر ليؤكدوا لجيش الحكومة خضوع العصاة لها. فانطلى ذلك للحال على قسناتاس وأتى الضفة الأخرى من النهر التي كان العدو فيها. وفي اليوم التالي تظاهر بالانكسار والذعر وتفرّق، فسرّ أمير الجيوش السورية بذلك وانعكف على الانشراح قاطعاً النظر عن مركزه الخطر. وبينما هو كذلك، دهمته جنود مولون وقد نجحت حيلتها وأخذته وهو غافل لاهٍ فقتلت جماعته وفر بنفسه هارباً.

وكان أنطيوخس الملك في هذا الوقت قد سار بجنوده لقتال المصريين واستعادة البلاد السورية التي كانت خاضعة لهم. وعندما علم بهزيمة قسناتاس في تلك الحملة وبأن مولون أخاه العاصي قد عبر النهر وافتتح مدينة سلوقية، (وهي عند الفرات غير التي على الوسط)، ازداد أنطيوخس حزناً وعقد اجتماعاً لرجال بلاطه وأرباب المشورة. وبكل حكمة ولباقة جدد أبيكنوس صاحب الجيوش دعوته لتنفيذ مبادئه التي طالب بها أولاً وثانياً ولم ينجح، وبرهن أن نتائج المقاومة كانت وبالاً على الدولة. ومع أن خطابه كان مشحوناً بالبراهين القاطعة نهض هرمياس الخائن وأخذ يدافع عن رأيه بالنفاق والعناد موبخاً ذلك الحكيم الذي كان يفضل مصالح المملكة على مصلحته الخاصة ومعاكساً نواياه. ثم توجه إلى الملك

بالقول: إن إضرابه عن إخضاع لكسيريا، أي البقاع، وانتشالها من أيدي المتسلطين عليها خفة وعدم ثبات. وما كان في هذه اللحظات من المشاركين في الاجتماع، والذين كانوا قد صحوا من سكرتهم وعرفوا أن تأييدهم لآراء هرمياس يقودهم إلى الخراب، إلا أن حكموا لمصلحة أبيكنوس. وكان أنطيوخس قد أظهر ميله لعضد آرائه فأقر القرار على ذلك. أما هرمياس، فلما رأى أحرار المجلس وقرارهم انصاع للأمر الواقع ووافقهم في العلن على آرائهم، لكنه ضمناً كان يحضر فخاً لأبيكنوس.

وصدر الأمر باجتماع الجنود في مدينة أباميا في سوريا. ولما اكتمل عددها ظهر الفساد والاختلال فيها لأن الجنود كانوا يطالبون برواتبهم. فتدارك هرمياس الوضع وأتى بالمطلوب لأنه لم يكن في الخزينة مال. وأخمد الهيجان بعدما قضى على فرقة عددها ستة آلاف جندي لأنهم كانوا جرثومة العصيان. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يظهر فيها هرمياس كرمه باستحضار المال لأنه كان كثير المداهنة يسر الملك بمجالسته، فأخذ يبين للملك اقتداره على القيام بأعباء الملك وحده من دون مساعدة، وأظهر له بوضوح أن ذهاب أبيكنوس بهذه الحملة التي اقترحها مضر بالمصلحة العامة، وطلب من الملك بالحاح توقيف أبيكنوس في مدينة أباميا، وقد رفض أنطيوخس في البدء، إلا أنه اضطر بعد مدة إلى اتباع آرائه كالعادة؛ فأمر قائد جيشه بالإقامة في أباميا.

وكان في قلعتها وكيل من أتباع هرمياس يدعى ألكسيس فاتفق مع صاحبه على إعدام أبيكنوس. فحرر ألكسيس كتاباً مزوراً من مولون في مادي إلى أبيكنوس يشكره فيه على همته ومهارته بالغاء الاختلاف والاختلال في المعسكر. ثم رشا أحد مماليك أبيكنوس فغافله ووضع الكتاب في محفظته. وبعد مدة غير طويلة قام هرمياس بزيارة أبيكنوس وقال له: «لقد ورد لك تحرير من مولون، فبماذا تردّ»؟ امتعض أبيكنوس من ذلك لمعرفته مسبقاً بأنه بريء من تلك الخيانة، فأجابه بالنفي. لكن هرمياس أصرّ على قوله مشيراً إلى أن الملك «قد علم بمراسلاتكما وهو الذي أمرني أن آتي إليك، وأدقق في القضية مفتشاً أوراقك». ثم فتش في

حقائبه وأوراقه الخاصة فوجد الكتاب في المحفظة، فأخذه وسلمه إلى الملك، ممّا دفع بهذا الأخير إلى إعطاء الأوامر بقتل أبيكنوس بلا محاكمة. وهكذا مات ذلك الحكيم ضحية حسد الخائن وانتقامه.

وقبل حلول الشتاء سار أنطيوخس على رأس جيش كبير إلى ضواحي الفرات، واشتبك مع العدو إلى أن دارت الدائرة على عساكر مولون وولوا هاربين. ويقول بعض المؤرخين أن مولون قتل نفسه بعدما يئس الانتصار والهزيمة. وكان له أخ صغير يدعى تيولاكوس فرّ مسرعاً إلى بلاد فارس، واحتار في أمره لأنه كان لا يطيق التسليم للعدو؛ فقتل أخاه وأمه وزوجته وأولاده وأقرباءه ثم نفسه أيضاً، ليدخل أنطيوخس البلاد ملكاً. وكان يعامل الأهالي باللطف والرحمة. وبدورها استسلمت سلوقية الفراتية دون حرب، ولكن عندما أتاها هرمياس بعث بكثيرين من أهلها إلى المنفى ووضع ضريبة خيالية على الباقين، نحو ألف تالاندون من الدراهم. ولما وصلها أنطيوخس أمر بتحصيل ١٥٠ تالاندون فقط وعفا عن كثيرين. ثم عيّن عدداً من الولاة والحكام من الأمناء ووزعهم في البلاد الخاضعة له. واتخذ من سلوقية الفراتية مقراً له. ثمّ تحضّر لشن حرب على القبائل التي تقطن أواسط آسيا لضمها إلى امبراطوريته.

لكن هرمياس الطامح إلى خلافة الملك بأي وسيلة، فقد صورت له أوهامه أن يقتل أنطيوخس ويقيم نفسه وكيلاً على ابنه القاصر حتى يعلو منصبه وترسخ قدمه، فيطرح عنه رداء الوكالة وينادى باسمه ملكاً مستقلاً.

وفيما كانت نوايا هرمياس موضوعاً لأحاديث الناس، وكان الجند وكثيرون من الأعيان والعامة ينقمون عليه ويكرهونه لصلفه وكبرياء نفسه واتهامه أبيكنوس ظلماً، وكانوا يطلبون فرصة لإعدامه، دخل أبولوكانوس طبيب الملك على مولاه وقص عليه ما كان من نوايا هرمياس الشائعة بين القوم، ومن رغبة العسكر في قتله. فغضب الملك واتفق مع الطبيب على تدبير خطة للاقتصاص من الخائن؛ فأشاع الطبيب أن الملك مريض، وأنه يحتاج إلى ركوب الخيل في الصحراء والأحراج كل يوم. فعلم هرمياس وطلب مرافقته؛ فما كان من الطبيب إلاّ أن

أوصى جماعة أودعهم سره بمهاجمة هرمياس وقتله. وعندما نفذت الخطة عمت الأفراح أهل أباميا.

أمّا أنطيوخس، وبعدما استراح من مشاكله الداخلية، فقد سار إلى بلاد الكرج. وبينما هو في طريقه، ثار عليه ابن عمه ألكيوس الذي كان قد أقامه والياً في الأناضول وطلب الاستقلال وزحف على سوريا. غير أن الجنود السوريين منعوا هذا المختلس من الدخول إلى البلاد فسار مسرعاً إلى لاوذكية وهي في إقليم فراكيا. وكان هناك رجل منفي من مدينة سلوقية من الذين ثاروا ضد أنطيوخس في ثورة مولون يدعى سينيريدس، فأخذ يحرض أكيوس على إعلان الاستقلال ففعل ذلك. ثم زحف على إيالة أيقونية التي كانت من مملكة أنطيوخس فنجحت الحامية السورية في رد أكيوس عن البلاد، ممّا دفعه إلى مهاجمة بيسيديا وسلب قراها ومدنها.

وكان أنطيوخس قد استقر في إنطاكية وجمع أرباب الندوة للمشورة في شأن «تحرير» لكسيريا من أيدي المصريين المغتصبين، فاقترح الطبيب أبولوكانوس أخذ مدينة سلوقية التي على المتوسط عند مصب العاصي لأنها أكثر لزوماً من غيرها. فصادق الحاضرون على ذلك الاقتراح لتبدأ بذلك المواجهة الحقيقية بين أنطيوخس وبطليموس، عدوّه في الجنوب.

وعيّن ديوكنتوس أمير البحر مأموراً لمحاصرتها بحراً، فيما كان الملك يحاصرها براً ويستميل قلوب الأهالي بالأموال والوعود بالمناصب والرتب. لكنه لم ينجح لأن أعيان المنطقة كانوا يفضلون حكومة المصريين. وعندما اشتد الحصار البري والبحري رافقته خيانة بعض خفر القلعة، فاستسلمت المدينة، وتبادلت شروط التسليم والتسلم، وأهمها أن لا يضرّ أنطيوخس بالمحاصرين. وكان ثيوذوسيوس من أمناء بطليموس، وقد أظهر كل نشاط وإقدام في حصار القلعة. ولكن عندما بلغه أن بطليموس قد مال عن حجته كتب إلى أنطيوخس، والتمس قبول طاعته بشرط أن يسلم المناطق الواقعة تحت إدارته إلى حكومة سوريا. فردّ عليه أنطيوخس بالإيجاب. وللحال طلب من أهالي صور أن يطيعوا أنطيوخس. ثم

سار إلى عكا، (وكان ويقال لها بطولمايس) التي عندما بلغها الأمر أعلنت طاعتها لسوريا وأقام فيها.

وكان بطليموس قد عيّن رجلاً يدعى ثيولاكوس ليساعد ثيوذوسيوس في محافظة بر الشام؛ ولما علم ثيولاكوس بما فعله رئيسه، استاء من خيانته فأقام جنوداً في المضائق الواقعة بين عكا وسلوقية ليقطعوا طريق أنطيوخس. فضلاً عن أنه حاصر عكا. إلا أن أنطيوخس علم بالأمر وأمر جنوده بتتبع آثار العدو حتى مدينة عكا حيث قابل ثيولاكوس ورفع حصاره عنها واستولى على أربعين سفينة مصرية كانت في مينائها وميناء صور. وظل أنطيوخس يحارب المصريين حتى مني بخسارة عظيمة عام ٢١٧ ق.م. في معركة جرت على حدود رفح (رافيا قديماً) الواقعة بين غزة وبلاد مصر؛ إذ اصطف الفريقان على بعد من رفح، وكانا قريبين من بعضهما. وفي إحدى الليالي المظلمة وقد غفل الحرس المصري، دخل ثيوذوسيوس مصاف المصريين حتى أتى خيمة بطليموس فدخله عازماً على قتله؛ غير أنه لم يكن في خيمته، فقتل طبيبه ورجلين آخرين كانا نائمين هنالك.

أما جيش أنطيوخس فكان عدده ٦٨ ألفاً من المشاة والفرسان جمعهم من كل أقاليم دولته الكبرى، وكان في طليعته عديد من الفيلة المدربة على فن القتال. في حين كان جيش بطليموس أكثر عدداً، أما أفياله فلم تكن قوية أو مدربة لأنها كانت قد جلبت من صحراء ليبيا. واستعرت الحرب فأطلقت أفيال أنطيوخس على أفيال عدوه التي ما لبثت أن ولتّ مدبرة وداست جيوش المصريين فردتهم عن مراكزهم. وعندما رأى أنطيوخس ذلك حمل بالجناح الأيمن من عسكره وأطبق على الجناح الأيسر من جيش العدو فانتصر عليه انتصاراً هائلاً. إلا أن الجناح الأيمن من جيش بطليموس فاجأ جناح السوريين الأيسر وأطبق عليه، لينكسر بذلك السوريون انكساراً عظيماً انتظروا بعده فترة ١٩ عاماً لينتقموا.

ولمّا رأى أنطيوخس ذلك الانكسار، بدأ بلمّ شمل جنوده الذين تفرقوا وأخذ كثيرون منهم بالفرار. لكن صعوبة مهمته أدّت به إلى قتل عشرة آلاف من السوريين

وأسر أربعة آلاف آخرين، ووقوعه في اليأس من نجاح سياسته بضم كل البلاد السورية والاستيلاء على الممالك التي استولى عليها أسلافه، الأمر الذي دفعه إلى التفكير باتخاذ التدابير اللازمة لحماية الممالك الأخرى الخاضعة له، مع علمه أن قوة أعدائه أعظم كثيراً من قوة الدولة السورية. ولذلك رأى من الصواب إرسال وفد إلى بطليموس لعقد معاهدة صلح بينهما، وعيّن لهذه المهمة رئيس الفرسان أنتيباتروس ورئيس إحدى الفرق ثيوذوسيوس همبوليوس اللذين توجها إلى مصر وعقدا هدنة دامت سنة واحدة عادت بعدها الحرب. وبعد زمن قصير بدّل بطليموس سياسته وعزم على وقف القتال؛ فبعث إلى أنطاكية برجل يقال له سوسبيوس ليتحادث وأنطيوخس على عقد معاهدة ثانية، شرط أن يتخلى هذا الأخير عن حقوقه القديمة في احتلال فلسطين وفينيقيا ولكسيريا التي استولى عليها بطليموس بعد معركة رفح، فقبل أنطيوخس، ووقع على المعاهدة فعادت سوريا إلى التجزؤ. أما اليهود الذين كانوا يرفضون الخضوع لبطليموس ودخوله إلى هيكل أورشليم، فكان مصير بعضهم الموت بعدما أصدر الملك المصري أوامره بأن يعرض اليهود للفيلة كي تدوسهم بأرجلها.

في غضون ذلك، وبعدما رأى أنطيوخس أن لا أمل له باستعادة ما احتله ملك مصر، قرر محاربة ابن عمه أكيوس العاصي في الأناضول. وكان هذا الأخير من أصحاب بطليموس. غير أن المعاهدة بين أنطيوخس وبطليموس لم تأت على ذكر أكيوس. ولذلك يعتقد المؤرخون أن بطليموس لم يصاحبه إلا ليعادي أنطيوخس، وعندما اتفق معه لم ير سبيلاً لنجدة عدوه جهاراً. وسار أنطيوخس بجنوده إلى الأناضول، ولم يكن أكيوس يملك جيشاً وعتاداً حقيقيين لمقاومته، فكان يلتجىء إلى الحصون والقلاع حتى ملّ الحرب وقبل بعقد شروط التسليم، وسلّم نفسه لأنطيوخس الذي أمر بقتله متناسياً عهوده، وزاعماً أن إعدام العاصي تأمين للبلاد.

ولما هدأت الأحوال توجه أنطيوخس إلى مادي ليحررها من الأشكانيين ودخل البلاد على رأس جيش كبير منتصراً، ووصل حتى همذان عاصمتها. وعندما

بلغ الرمال التي كان الأشكانيون قد عزموا على قتاله فيها عقد معهم الصلح عام ٢٠٨ ق.م. وسار إلى بعض العصاة وأخضعهم حتى بلغ الهند فلقبه أتباعه عندئذٍ بـ «الكبير».

وفي عام ٢٠٤ ق.م. أصيبت المملكة المصرية بنكبة ووقعت في ارتباك عظيم بوفاة بطليموس ميلوباتر وبتسمية الملك بطليموس إيفانوس خليفته، وكان صغيراً قاصراً. لذلك قام بعض الوكلاء بأعباء الملك مع أنهم لم يكونوا جديرين بالنيابة لما هم عليه من الخبث ورداءة الطباع. فكانوا يضحون بالمصالح العامة لمصالحهم الخاصة. فرأى أنطيوخس وجوب الحملة على تلك البلاد وتقسيمها وإعادة أملاكه السابقة. فاستنجد بملك مقدونيا فيليب الخامس؛ غير أن بعض الظروف وتدخل رومة في أول اتصال بينها وبين أنطاكيا، حوّلت أنطيوخس عن عزمه على تقسيم مصر وعاد إلى سياسة أسلافه الرامية إلى استرجاع البلاد التي استولى المصريون عليها. فسار نحوها وإذا بفلسطين ولكسيريا وبعض فينيقيا قد سلمت له. فأرسل المصريون جيشاً جراراً تحت قيادة سكوباس الذي ما لبث أن انهزم أمام السوريين في معركة بانياس، بعدما استعمل الجيش السوري الفيلة التي كان الملك قد جلب أعداداً جديدة منها من الهند، فالتجأ سكوباس وما تبقى من جيشه إلى صيدا. غير أنه لما اشتد الحصار سلم كل جيشه وفتحت صيدا وتم انضمام فينيقيا إلى سوريا، وذلك سنة ١٩٧ ق.م. ليسترجع أنطيوخس بعد قتال دام عشرين سنة كل ما فقده والده ووالد والده تقريباً.

في غضون ذلك، عقد بطليموس عهداً مع أنطيوخس وتزوج بابنته كليوباطره الأولى فوهبها والدها ولايتي لكسيريا وفلسطين هدية الزواج، فاستقرّ الودّ بين الدولتين وذلك سنة ١٩٢ ق.م. ثم عزم أنطيوخس على تأسيس مملكة لابنه سلوقس في الأناضول؛ لكن حكومة روما أرسلت إليه وفداً وطالبته بأن يكف عن عزمه فصدّ الوفد، ثم سار إلى مصر ليفتحها بعدما تبلّغ أن بطليموس قد مات. وعندما تحقق من كذب الخبر أراد افتتاح قبرص فتكسرت مراكبه.

وكان هنيبعل القرطاجي في هذا الوقت قد التجأ إلى سورية بعدما انكسر،

وبدأ يحرض أنطيوخس على مهاجمة إيطاليا. ولما لم يكن هذا الأخير على معرفة تامة بقدرة السلطة الجديدة التي ظهرت في الغرب تجرأ على دخول الحرب لمصلحة اليونان حيث كان الرومان يتوسعون. فجمع سفناً من صور وصيدا وأرواد، وسار إلى محاربتهم ومحاربة الرودسيين، لكنه أصيب بهزيمة على أيديهم في ترموبيلي عام ١٩١ ق.م. ثم هزمه الرومان في العام التالي للمرة الثانية قرب مغنيزيا في غرب آسيا الصغرى، ليضطر إلى الفرار إلى سوريا وإيفاد رجلين أحدهما يدعى أنتيباتروس ليعقدا مع رومة صلحاً. فعقدا معاهدة تخلى فيها عن كل ممتلكاته وراء جبال طوروس ويدفع بموجبها غرامة حربية ضخمة، ليفقد بذلك آسية الصغرى إلى الأبد، بما فيها من طرق تجارية برية وبما تقدمه من اتصال مباشر مع الحضارة اليونانية. وأصيبت الامبراطورية السلوقية بضربة قاصمة وهي في أوج ازدهارها ونجاحها الذي بلغته منذ تأسيسها.

وتضمنت معاهدة الصلح البنود التالية:

أولاً: أن يتخلى أنطيوخس عن الممالك التي كانت خاضعة للدولة السورية في آسيا وأوروبا، وتكون حدود مملكته جبل طوروس في الأناضول.

ثانياً: أن يدفع أنطيوخس خمسة عشر ألف أوبية مقسطة.

ثالثاً: أن يسلم عشرين نفراً ينتخبهم الرومان من السوريين ليكونوا رهينة عندهم.

رابعاً: أن يسلم لهم بعض الرجال الذين كانوا قد التجأوا إلى أنطيوخس، منهم هنيبعل غير أن هذا الرجل كان قد فرّ هارباً.

وكانت هذه المعاهدة آخر عمل قام به أنطيوخس قبل أن يفارق الحياة. ويقول بعض المؤرخين أنه سكر يوماً فضرب أحد قادته فقاموا عليه كلهم وقتلوه. وروى آخرون أنه لما رأى أن المال المتعهد به للرومان باهظ، سار إلى معبد في إحدى الممالك وأراد سلبه فقام عليه الأهالي وقتلوه. وتولى الملك ابنه سلوقس فيلوباتر (١٨٧ ـ ١٧٥). ولم تكن مملكته بالاتساع الأول ذاته، غير أن لكسيريا

وفينيقيا كانتا قد ضمتا إليها. وكانت الامبراطورية الرومانية تتسع يوماً فيوماً، وأصبحت تدخلاتها في سياسة الأمور السورية من أهم مقاصدها. ولم يكن سلوقس يجرؤ على مقاومتها. ولذلك كان يلبي أوامرها. وفي هذه الأثناء تزوج بلاوذيكس أرملة أنطيوخس (هي شقيقته وامرأته معاً). وكانت قد أنجبت من أنطيوخس ولداً أسمته ديمتريوس، فلما بلغ الرابعة عشر من عمره قرر استجلاب أخيه أنطيوخس بن أنطيوخس الكبير الذي كان رهناً عند الرومان الذين قبلوا بإطلاقه مقابل بدل شخصي أو نقدي. ويشير بعض المؤرخين إلى أن ديمتريوس أخذ رهناً عضواً عنه. وبينما كان أنطيوخس عائداً إلى سوريا، بلغه وهو في أثينا أن أيلوزورس وزير سلوقس فيلوباتر قام على مولاه وقتله واستبد بالحكم فأسرع إلى سوريا. وفي طريقه ضم إليه بعض ولاة الأناضول ودخل البلاد فقاتل أيلوزورس وانتصر عليه واعتلى عرش الملك عام ١٧٥ ق.م.

نشوء الجمهورية اليهودية ـ المكابية

لما استبد أنطيوخس أبيفانوس (١٧٥ ـ ١٦٤) بالملك بدأ يصرف أوقاته في البذخ والإسراف. وكان ملك مصر إذ ذاك بطليموس فيلوباتر يخطط لحملة يسترجع من خلالها سوريا المجوفة ـ موضوع النزاع ـ فبعث أنطيوخس برجل يدعى أبولونيوس لاستكشاف حقيقة سياسة مصر، فسار إليها. وبعد التدقيق، رأى أن نوايا الدولة المصرية سيئة فبدأ الهجوم في البر والبحر وهزم الجيش المصري عام ١٦٥ ق.م. هزيمة ساحقة في قلعة بيلوزيوم الواقعة على الحدود (الفرما بالعربية)، وأسر الملك بطليموس ميلوباتر نفسه. وسرعان ما وقعت مصر السفلى كلها في يدي أنطيوخس، باستثناء الاسكندرية التي تعرضت للحصار لأول مرة في تاريخها. غير أن ضغط روما على أنطيوخس الذي كان لا يزال يدفع لها أقساط الغرامة الحربية، أسرع برفع الحصار عنها، وجلا الفاتح السوري عن البلاد وعاد إلى وطنه. والأرجح أن السبب الموجب لنشوب هذه الحرب، إنما هو مسألة الحدود وتسلط المصريين على فلسطين وغيرها. إلا أن هذه الحرب (الثورة المكابية) امتدت لتعلن على اليهود، إذ أن أنطيوخس في الوقت الذي ازداد بذخاً وإسرافاً حتى نفذت أموال خزينته مع ما كان قد سلبه من المال والآنية الفضية من بيت المقدس وثروات المعابد كلها في سورية تقريباً، أخذ جنوده بممارسة أنواع من القساوة البربرية في أورشليم، في قتل اليهود وأسرهم.

وكان اليهود منزعجين من سطوة السلوقيين عليهم، ومن فقدانهم حرّيتهم، وعندما بلغهم خبر موت أنطيوخس الكاذب، فرحوا. وقام أحد كهنتهم، ويُدعى متثيا بن يوحانان وراح يحرّض شعبه على الثورة. فعلمت الدولة السورية بالمخطط، وأرسلت فيلكس الوالي عليهم بجنوده ليحاربهم فانكسر اليهود. إلا أنهم ازدادوا عدداً وتصلباً، في حين توفي متثيا وقام مكانه ابنه يهوذا الملقب

بالمكابي وما كاد يستقر في حكمه حتى وقعت الحرب بينه وبين جيش أنطيوخس إيفانوس الذي دارت الدائرة عليه وانكسر وتوفي بعد فترة قصيرة، عندما كان سائراً بجيش آسيا لإخضاع إحدى القبائل التي تعطيه الجباية وذلك سنة ١٦٤ ق.م. وكانت مملكته آخذة في الضعف والانحطاط فيما الدولة المكابية تسير نحو الأمام، بعدما انتصر يهوذا على قواد السوريين وجيوشهم ولم يقف أمامه أيّ من أبولونس أو سيرون أو نيكانور أو كورجياس أو أوليسياس أو تيموثاوس أو بكجيديس، أولئك القادة الذين كانت ترسلهم الدولة السورية واحداً تلو الآخر لمحاربة المكابيين.

وبعد موت أنطيوخس أبيفانوس خلفه أنطيوخس يوباتر (١٦٤ ـ ١٦٢). وبما أن عمره كان تسع سنوات، عهد بالنيابة لرجل من الخاصة يدعى فيلبس فاهتم هذا بالاشتغال في أمور المملكة. غير أن قائداً يقال له ليسياس رأى أن يأتي ويتقلّد النيابة، فسار على فيلبس حتى ألزمه الهرب إلى مصر ومنها إلى بلاد فارس. ولما استولى ليسياس على الإدارة بدأ باتخاذ التدابير اللازمة لإخماد ثورة اليهود؛ فقامت بينهما حروب كثيرة كان الفوز فيها ليهوذا. فرأى ليسياس ضرورة عقد الصلح فتم ذلك عام ١٦٣ ق.م. على أنه ما لبث أن عاد فيلبس فجأة إلى أنطاكية عازماً على استعادة النيابة. فما كان من ليسياس إلا أن أحاط أنطاكية بالعسكر، فخاف فيلبس وفرّ هارباً. وبما أن أنطيوخس يوباتر كان حتى ذلك الوقت قاصراً والحكومة بيد نوابه ثار ديمتريوس بن سلوقوس فيلوباتر (١٦٢ ـ ١٥٠) مدعياً حقّه بتاج الملك، وسار لتحرير أخيه أنطيوخس من رومة، وعرض نفسه بديلاً عنه. وكان أنطيوخس قد شرع يحرض الدولة الرومانية على التدخّل بالأمور السورية وإعانته على تقلد زمام الدولة. غير أن الحكومة الرومانية رفضت طلبه وبعثت وفداً إلى سورية يطلب باسمها تنفيذ شروط المعاهدة التي عقدها انطيوخس معها. فوصل الوفد سورية وحدد عدد الجيوش الموجودة فيها وأحرق بعضاً من السفن وقضى على الأفيال التي كانت قد جلبت من بلاد الهند. فغضب السوريون من تسلط الدولة الرومانية عليهم وثارت فيهم النخوة وقتلوا رجلاً من الوفد. غير أن أنطيوخس يوباتر الذي استاء من ذلك، خشية من العواقب الوخيمة، بعث باعتذار إلى رومة قائلاً: «إن

ذلك لم يجر عن طيبة خاطره إنما كان حدوثه من تعديات الأهالي». لكن المجلس العالي رفض اعتذاره، وأعلن الحرب. فاستغل ديمتريوس بن سلوقس فيلوباتر الفرصة لتجديد طلبه، وعندما لم يتلق جوباً أبحر إلى وطنه فاستقبله الأهالي استقبال الأبطال، وعينوه ملكاً عليهم وسلموه أنطيوخس يوباتر وليسياس نائبه فقتلهما وكان ذلك عام ١٦٢ ق.م.

لما علمت رومة بهرب ديمتريوس أرسلت إليه بعثة ديبلوماسية لمناظرة أعماله فما كان منه إلا أن أخذ يعد تلك البعثة بوعود عظيمة بهدف نيل اعتراف حكومة رومة بملكه، فصادقت هذه الأخيرة على جلوسه.

دهاء المكابيّين

أما يهوذا المكابي فعندما وجه ثورته في بادىء الأمر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير أكثر منها ضد الحكومة المركزية، ونظم وإخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال وتتجنب المعارك النظامية مع القوات الملكية، وقد أمسى والياً مستقلاً في داخليته خاضعاً بالاسم للدولة السورية، قرر التخلص من نير الحكم السوري، فجهز جيشاً عظيماً لقتال الجيوش السورية فقتل نيكانور وخمسة آلاف من جيشه، لأن نيكانور كان قد قصد أورشليم ليقبض عليه عاد خالي الوفاض. ومع أن السوريين لم يصادفوا إطلاقاً أي نجاح في معاركهم مع اليهود، إلا أنهم كانوا لا ينفكون عن إرسال الجنود، فأرسلوا بعد انكسار نيكانور بكخيدس وألسيموس لمحاربة يهوذا. غير أن هذا الأخير توفي في المعركة فما كان من أخيه إلا أنه جيّش جيشاً جراراً وأعلن الحرب، فقتل ألسيموس وانتصر في أكثر المعارك ليعقد بعد ذلك الطرفان شروط الصلح عام ١٨٥ ق.م.

في ذلك الوقت، كانت الدولة المصرية لا تزال تنظر إلى الملوك السلوقيين بعين العداوة. لذلك عقد ملك مصر بطليموس فيلوباتر اتحاداً مع بعد أعداء مملكة سورية، وبدأوا يحضون أهل البلاد على طرح نير السلوقيين عنهم، وما انفكوا على ذلك حتى أغروا رجلاً يدعى اسكندر بالاس ابن انطيوخس أبيفانوس لاحتلال

سورية ومطالبته بالملك. ووافقت حكومة رومة على الأمر لأنها كانت ترغب باندثار الحكومة السلوقية فدخل اسكندر عكا أولاً وأخذ بالاستيلاء على البلاد، بعدما جمع جيشاً. فما كان من ديمتريوس إلا الاستعانة بيوناثان المكابي؛ فبعث إليه برسالة يطلب منه المعونة مقابل حسن المعاملة والمصافاة. فوعده يوناثان بتلبية النداء إلا أنه اتحد واسكندر وقاتلا ديمتريوس فغلبناه وأرداه، فنودي باسكندر بالاس ملكاً على سورية عام ١٤٩ ق.م. ولم يكن وراء ذلك إلا سياسة رومة «المهترئة» التي لم تنظر إلى الصالح العام بل إلى مصلحتها الشخصية، مسلمة تاج ملك السلوقيين إلى رجل لا تعرف حقيقة حاله. إلا أن الملامة الأولى تقع على عاتق القادة السوريين الذين قبلوا سياساتها: إذ أن اسكندر بالاس «المختلس» لم يكن مستقيماً وكان يعني للأبهة، لا لخدمة الشعب. لذلك يضاعف التاريخ لوم من سهل له السبيل لارتقاء عرش المملكة العظيمة، ولكي يستر عيوبه ونقائص أعماله، طلب أن يكتب على مسكوكاته لقب «ثيوباتر» ومعناها «البدر المعبود». كما تزوج كليوباترا ابنة بطليموس ملك مصر، وزادت دولته فساداً مع تعيينه وزيراً يدعى أمينوس، وهو أكثر شراً من سيده. فانهمكا بارتكاب المنكرات وإضاعة الوقت حتى اتفقا على إبادة السلوقيين. إلا أنهما لم يفوزا بالمقصود لأن ديمتريوس الثاني ابن ديمتريوس سوتير أتى سورية مطالباً بحقوقه المختلسة، فانضم إليه جمع غفير من الذين لم تسرّهم دولة اسكندر بالاس، وأنجده بطليموس فيلوماتر (مع أنه نسيب اسكندر) وحاربا الأعداء وانتصرا عليهم عام ١٤٥ ق.م. ففر اسكندر هارباً إلى ملك العربية زبدائل الذي استقبله بقطع رأسه.

بوادر ثورة شعبية

أصبح يوناثان المكابي الذي كان من أنصار اسكندر، عدواً لديمتريوس نيكاتور، وأخذ يستعطفه بالهدايا والهبات فرضي عنه. أما بطليموس فيلوماتر فتوفي في سورية أثناء حملته لنجدة ديمتريوس. ولما علمت زوجته بمصرعه عينت أونيا اليهودي، ابن أونيا الثالث، قائداً لجيش مصر، فصفا الجو بين ديمتريوس ويوناثان وعقدا اتفاق سلام. واستهل ديمتريوس بحكم البلاد فسلم أزمة الملك

لوزيره لاستنس، وكان قليل الخبرة والتدريب. لذلك لم يكن أهلاً للقيام بالإصلاح مع أنه كان يرغب بذلك. فكان يقدم على اتخاذ مبادرات دون روية أو نظر في العواقب. وقد أصبح الجنود المصريون الذين أعادوا التاج لديمتريوس بعد حروب دامية وقاسية ضحية لمقاصد ذلك الوزير لأنه أمر بقتلهم جميعاً. وبات الحزب المضاد للحكومة قوياً نافذ الكلمة يهيجه الظلم وأعمال لاستنس. فثار بعض أعضاء الحزب والأنصار في مدينة أنطاكية. وعندما شعر الملك بتفاقم الوضع وخطورته أمر باتباع مشورة وزيره القاضية بجمع سلاح الأهالي. وما أن بدأت الحكومة بتنفيذ المشورة حتى ظهرت شرارة الثورة وشهر مئة وعشرون ألفاً من الأهالي سلاحهم في وجه الحكومة وساروا إلى باحة القصر الملكي؛ فما كان من ديمتريوس إلا أن استنجد بيوناثان الذي جاء بجيش كبير وفتح أنطاكية منقذاً ديمتريوس من الخطر الذي جلبه لنفسه، ونهب المدينة وأحرقها بالنار وقتل عدداً لا بأس به من الأهالي الثائرين.

إلا أن تلك الثورة رغم إخمادها لم تزد الشعب إلا حقداً على الحكومة لكثرة القتلى فباتوا بها بالمرصاد يترقبون الفرص المناسبة للثورة عليها، لحين سار تريفون (حاكم أنطاكية في عهد اسكندر بالاس) إلى زبدائل يطلب منه الافراج عن أنطيوخس بن اسكندر الذي كان رهناً عنده. فأخذه وتوجها إلى العراق حيث نادى به ملكاً على سورية، وفيما كان الأهالي ينتظرون أفول عهد ديمتريوس والجنود ترغب بخلعه ويوناثان قد فصم عرى مودته، اتحدوا جميعهم مع أنطيوخس ولقبوه بثيوس (لقب أحد أجداده) ومعناه «الله»! وحاربوا ديمتريوس فانهزم هذا الأخير، وفرّ ملتجئاً إلى قلعة سلوقية، ليدخل أنطيوخس مدينة إنطاكية، ويعتمر تاج الملك ويضرب نقوداً باسم واسيليوس أنطيوخس أبيفانوس ديونيسيوس. إلا أن سلوقية وساحل البحر بقيتا تحت حكم ديمتريوس منشطرتين عن سائر المملكة.

نشوء الجمهورية اليهودية

أما تريفون وفي غضون ذلك فقد ألقى القبض بحيلة على يوناثان وقتله في عكا، فخلفه أخوه سمعان عام ١٤١ ق.م. كاهناً أعظم وحاكماً. وفي عهده منح

الملك ديمتريوس اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان، لتبدأ بذلك أورشليم عصراً جديداً وتكتب الوثائق منذ ذلك الحين فصاعداً «كما يلي في السنة الأول من حكم سمعان الكاهن الأعظم والحاكم»، وهكذا ولدت جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين عاماً ضرب خلالها سمعان النقود ووسع تجارته.

والأمر الذي دفع تريفون إلى قتل يوناثان خوفه من أن يقف هذا الأخير لعظمته ونفوذ كلمته أمام طموحه، ألا هو الجلوس على العرش، مكان أنطيوخس تيوس، فكان له ما أراد. فاغتال يوناثان ثم أنطيوخس وتقلد زمام الحكم. ولم يكن ديمتريوس في ذلك الوقت قادراً على مقاومته فاتحد مع سمعان المكابي لمحاربته. إلا أن الروايات التاريخية تشير إلى أن ديمتريوس توغل في المناطق الداخلية لمحاربة الأشكانيين فوقع رهينة فأحسنوا معاملته وزوجوه بابنة ملكهم، ممّا دعاه إلى هجر امرأته كليوباترا وتركها في سلوقية، وكانت تحب الرعايا وتبذل وسعها في معاملتهم. لذلك توارد إليها كثيرون من السوريين الفارين من تريفون حتى جمعت في مدة قصيرة جيشاً جراراً لقتال الأعداء، وأشهرت الحرب على الأشكانيين واليهود المستقلين، بعدما تزوجت بأنطيوخس أوركتوس سيدنس شقيق ديمتريوس عام ١٣٧ ق.م. فسار هذا الملك، بجنود امرأته لقتال تريفون فهزمه واستبد بالملك ومع أنه كان قد وهب اليهود حقوقهم الأولى، وأباح لهم ضرب النقود باسم ملكهم، ما لبث أن حاربهم فهزمه سمعان المكابي. إلا أنه لم يتمتع بفوزه طويلاً لأن صهره بطليموس خانه، فمات قتلاً بيده. فخلفه ابنه يوحنا هيركانوس الأول (١٣٥ ـ ١٠٥) الذي خاض حروباً عديدة ضد الدولة السورية، كان الفوز في أغلبها إلى جانبه. فما كان من أنطيوخس إلا عقد شروط الصلح والاتفاق مع هيركانوس على محاربة الأشكانيين مستنجدين بأهل بابل وغيرهم. وعلى الرغم من انتصارهم على الإيرانيين، إلا أن البذخ والترف لدى السوريين حوّل ذلك النصر إلى خسارة حيث بات كثيرون من الضباط والجنود ضحية جهلهم. وبعد فترة، وقتل أنطيوخس فنقلت جثته إلى سورية. وكانت ترافقه فتاة في غاية الجمال فأخذها ملك الأشكانيين فرهاد وتزوج بها (١٣١ ق.م.). وفي السنة التالية طرح اليهود نير الطاعة للملوك السوريين، واستقلوا في الأحكام. وسار

هيركانوس لافتتاح مدن سورية وضمها إلى مملكته. وتجدر الإشارة إلى أن اليهودية في عهد المكابيين الأوائل كانت ذات شكل ديني. وقد نقش هيركانوس على نقوده «يوحنا الكاهن الأعظم» ولكن ابنه أريسطوبولس (١٠٥ ـ ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك، أو على حد تعبير يوسيفوس «وضع تاجاً على رأسه». واتخذ مع سائر ملوك السلالة المتأخرة أسماء يونانية بجانب العبرانية.

إلا أن التصرف الذي قام به هيركانوس وابنه باجبار الشعب على الاختيار بين اليهودية أو الإبادة، اعتبر سابقة اتبعها أخرون في البيت الهمسوني في معاملتهم للشعوب التي يستعمرونها.

الفصل الخامس

تجزؤ المملكة السلوقيّة

وفي العودة إلى سورية فقد ظهر من جديد ديمتريوس نيكاتور الذي كان لا يزال رهينة لدى الأشكانيين، فثار قاصداً الدخول إلى سورية. إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه فثار قاصداً الدخول إلى سروية إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، لأن وفداً رومانياً صده عن ذلك. وعمل على إخماد عصاوة مدينتي أنطاكية وأبامية وسار لاسترجاع المملكة اليهودية، مع أن تدخل رومة لم يكن ناتجاً إلا عن استغاثة اليهود بها، وقام ديمتريوس بمحاربة أحد القادة، فانهزم وفرّ إلى عكا حيث زوجته كليوباترا، إلاّ أنها رفضت قبول التجائه إلى حصنها لأنها كانت حاقدة عليه لاقترانه بابنة ملك الفرس، فهرب إلى الجبال ومات هنالك عام ١٢٥ ق.م.

ويقول المؤرخون أن السوريين قتلوه وهو هارب. إلا أنه قبل أن يهرب ويموت كان القوم قد حرضوا رجلاً يقال له زابنياس ابن أحد التجار الاسكندريين على الادعاء بكونه ابن اسكندر سوتر فقصد البلدان أبان عودة ديمتريوس إليها فاتقاه وحاربه ونتصر عليه وطرده حتى فرّ ومات. فما كان من كليوباترا إلا الاتفاق مع زابيناس على اقتسام البلاد بينهما فتولى هذا الأخير شطراً وسلوقس بن ديمتريوس الشطر الآخر عام ١٢٥ ق.م. لكن كليوباترا والدة هذا الأخير خشيت أن يثأر ولدها لابيه فقتلته واستقلّت بالحكم. فلم يرض الأهالي عن حكومتها فنفروا منها ودعوا ولدها الثاني من أثينا أنطيوخس كريبوس إلى ارتقاء العرش، فلقب بابيفانوس، أي «الظاهر»، في حين لقبه الرعاع بالنسر ذي المنقار. وما كاد جلس على العرش حتى ثار الأهالي على زبيناس لأنه لم يكن يحسن معاملتهم فقتلوه. فما كان من أنطيوخس إلا أن استبد بالملك. وكان حكيماً حاذقاً، فاستدرك خبث والدته التي كانت ترصد لقتله ليخلو لها الجو وتنصّب على العرش ابنها أنطيوخس بن أنطيوخس سيدنس الأول، شقيق زوجها الأول ديمتريوس. ولم تترك حيلة إلا والتجأت إليها. لكنها لم تنجح في مسعاها حتى شربت في يوم من الأيام كأساً من الشراب السام كانت قد قدمته لأنطيوخس كريبوس وهو عائد من الصيد.

فأحس بدهائها وأقسم ألا يشرب من الكأس إلا بعدها. فشربت مضطرة ليكون وقوعها في الحفرة التي حفرتها لابنها مقبرة لها عام ١٢٠ ق.م.

وكان ابنها أنطيوخس في هذه الأثناء في أرواد يقيم فيها ملتجئاً، بعدما أرسلته والدته إليها لخوفها عليه، غير أنه لم يكن من المهتمين بالسياسة فكان يحب الانفراد والاعتزال. ولما توفيت والدته مالت أفكاره إلى الحوادث الجارية وبدأ يخطط للوصول إلى العرش الملكي، فتزوج كخطوة أولى بكليوباترا امرأة بطليموس المطلقة منه، وهي شقيقة تركنا زوجة أنطيوخس كريبوس. وجيش جيشاً وسار به إلى أنطاكية فبايعه الأهالي وسموه ملكاً عليهم. ثم حارب أخاه عام ١١٣ ق.م. غير انه انهزم وترك امرأته في أنطاكية ليطمئن الأهالي بوجودها، وفرّ هارباً. وفي غيابه أتى كريبوس على رأس جيش كبير، وحاصر القلعة. وفيما كان الأهالي يفضلون حكومة كريبوس، سلموا مدنهم دون أن يقاوموا «العدو»، أما كليوباترا من جانبها فالتجأت إلى إحدى معابد الأصنام بعدما يئست من تحقيق الانتصار، وبأمر من كريبوس لم يمسها الجنود لأن المعبد لا يجب أن يدنّس بالقتل. لكن امرأة كريبوس، شقيقتها تركنا، خافت من أن يميل زوجها إلى أختها فحرضته على قتلها، فكان لها ما أرادت. لكن الشعب ثار عليه، وحقق أنطيوخس انتصاراً تاماً عام ١١٢ ق.م. فأخذ تركنا أسيرة، وقتلها لأنها لم تشفق على أختها. وفي حين قرر الإقامة في إحدى ولايات آسيا الصغرى، تولى أخوه أنطيوخس سينرسنوس ولاية سورية. وكان كريبوس قد جهز جيشاً للسير إلى سورية حيث خابر أخاه وتوافقا على اقتسام البلاد دون سفك دماء. وكانت لكسيريا وفينيقيا من مملكة سينرسنوس وسائر البلاد من مملكة كريبوس، أما اليهودية فظلت للمكابيين.

وهكذا تم تجزؤ المملكة السورية العظيمة التي امتدت في الماضي من البحر المتوسط الأسفل والبحر الإيجي إلى التركستان والهند، ووقفت أمام العالم لأجيال عدة. فأخذت فرتيا وبكتريا والبلاد المجاورة بعيداً من الشرق تستعيد استقلالها، وبرزت سلالة عربية في الرها تعتمد إسمياً على فرتيا، ويطلق أكثر ملوكها على

أنفسهم اسم أبجر. ونجحت قبيلة عربية أخرى في جعل شيوخها حكام دولة جديدة تتمركز حول حمص وتتبع السلوقيين فقط. كذلك توطدت دولة وطنية تتألف من الايتوريين في سورية المجوفة واتخذت عنجر عاصمة لها بذلك بدأت فترة انحلال الدولة السورية السلوقية نحو عام ١١٢ ق.م.

وأقام سينرسنوس في دمشق بعدما اتخذها عاصمة له. وعندما اشتهر أمره وعظم شأنه، طمح إلى تعكير صفاء اليهودية الصاعدة والمزدهرة. فجيّش جيشاً عظيماً وزحف به عليها فمني بخسارة كبيرة. فطلب النجدة من بطليموس ملك مصر، فلبى النداء؛ مع أن والدته كليوباترا كانت تأبى نجدة سينرسنوس وتطلب إعانة اليهود لأن بعضاً منهم كانوا يخصونها. وكان يبلغ عديد عسكر المصريين ستة آلاف فقسمهم سينرسنوس إلى فرق، وبدأ ينهب القرى والمزارع. غير أن اليهود قابلوهم بحرب شرسة فتشتت شملهم، وأخذوا يهربون عائدين إلى مصر. أما سينرسنوس ففرّ إلى طرابلس وأرسل اثنين من قادته لمتابعة الحرب مع اليهود فانكسر أحدهما وخانه الآخر. واستولى ملك المكابيين هيركانوس مجدداً على السامرة عام ١٠٩ ق.م. وقهر السوريين الذين فيها.

ومجاراة لسورية، بدأت مصر بدورها في الانقسام والشقاق. واتخذت الأحزاب فيها دوراً وشأناً عظيمين، ممّا حمل بطليموس على الفرار منها قاصداً دمشق ومستجيراً بملكها سينرسنوس. فاستقبله في حرمه زمناً حتى ملّ بطليموس السكون؛ فأراد أن يشعل بين الشقيقين من جديد فجرب طرقاً عديدة حتى بعث بامرأته إلى أنطاكية لإغراء ملكها كريبوس، فيكون ذلك سبباً ليتزوجها وذريعة للحرب. فلما وصلت المرأة إلى أنطاكية، حدث ما خطط له زوجها. وكانت النتيجة سبباً لإعادة القتال بين الشقيقين عام ١٠١ ق.م.

ولما احتدمت الحرب، اغتيل كريبوس بعد ما خانه هيراكليوس أحد ندمائه فخلفه أبناؤه الخمسة: سلوقس، أنطيوخس، وفيلبس، وديمتريوس وأنطيوخس. وما كان من سينرسنوس بعدما رأى أن أخاه قد توفي وأن أنطاكية قد خلت ممن يملكها، إلا أن دخل إليها بغتة واستولى عليها عام ٩٨ ق.م. غير أن أبناء أخيه

قاتلوه حتى أخذ أحدهم سلوقس أسيراً وقتله ثأراً لأبيه عام ٩٦ ق.م. وخلف سينرسنوس ابنه أنطيوخس أوسيبوس الذي عزم على الثأر لأبيه، فأعلن الحرب على سلوقس وهاجمه وانتصر عليه. ففرّ هذا الأخير هارباً إلى كيليكيا، داعياً الشعب إلى التجنيد. وعندما لم يلبِّ النداء إلا القليلون أمر بفرض جزية بجمع المال واستئجار محاربين أجانب، وبضبط أملاك إحدى المدن. فحنق الأهالي وطوقوا قصره الملكي وأحرقوه فمات، وذلك عام ٩٢ ق.م. فخلفه شقيقاه أنطيوخس وفيلبس واستأجرا جيشاً من الرعاع الذين أتوا سورية للنهب والسلب وسارا بهم لقتال أهل المدينة الذين قاموا على أخيهما، فقتلا كثيرين. إلا أن الدائرة دارت عليهما بعدما قاتلا ابن عمهما الجالس على كرسي دمشق وتوفي أنطيوخس غرقاً في نهر العاصي.

بعد فوزه، رأى أوسيبوس أن الوقت غير مناسب لقتل فيلبوس ابن عمه. فبدأ يخطط لهدفه بالزواج في البدء بسلمى امرأة بطليموس التي كانت قد تزوجت بكريبوس ملك سورية وكانت سبباً في قتله قاصداً بذلك بسط نفوذه وقوته أكثر فأكثر. غير أن تلك «الخبيثة» رأت غير ما رآه زوجها الجديد وأرادت العودة إلى زوجها الأول بطليموس، فخابرته. وكان ديمتريوس أوكاروس (الابن الرابع) ملتجئاً إلى مصر، فأرسله بطليموس ليثير القتال على أوسبيوس، فيما كان فيلبس أخوه يحاصر أوسبيوس فرّ بعد ذلك إلى ملوك فارس، والتجأ إليهم طالباً النجدة. فاغتنمت تلك الدولة الفرصة للتدخل في شؤون سورية الداخلية، وسارت بجيش كبير إليها وانتصرت على أوكاروس الذي أخذ أسيراً وجلس مكانه عام ٨٧ ق.م. أخوه الأصغر أنطيوخس ديونيسيوس.

وأضحت سورية على شفير الهاوية، في ما كان ملوكها يلهون عن الإدارة بالجهل والفساد ويتبعون مصالحهم الشخصية وشهواتهم. ففسدت السياسة وكثر سفك الدماء فضجر الأهالي ورأى السياسيون أن البلاد آخذة في الخراب والتدهور اقتصادياً، واليد الأجنبية تحيك المشاكل وتلقي الشقاق والمفاسد في وقت كانت رومة تطالب بمد سلطتها، ومصر باتساع رقعة امبراطوريتها والأشكانيون بإضعاف

البلاد وانتهاك حرمة نظامها فتولى الخلل وعم الاضطراب وكثر الارتباك، فاستغل ملك أرواد الوضع وفتح أبواب جزيرته للهاربين، فجاءها جمع غفير ولم يكن يسمح لأحد منهم بالخروج من الجزيرة إلا بإذن الملك. وكان بين القادمين إليها كثيرون من العظماء الذين أعطوا الأرواديين عندما عادوا إلى أوطانهم بعد هدوء الحال، قسماً كبيراً من قبالة جزيرتهم إيفاء لمعروفهم.

حصانة واستقلال ذاتي

أما صور وصيدا فيظهر أنهما كانتا تتمتعان بالاستقلال الداخلي بدليل وجود مسكوكات لهما أولها عام ١٢٦ ق.م. ويرى بعض المؤرخين أن هذه المنحة لم تعط للسوريين إلا عندما قتلوا ديمتريوس الثاني لما فرّ إليهم هارباً بعد انكساره في دمشق. وقد كانت الخطوة الأولى نحو نيل الاستقلال الذاتي أن تحصل المدينة على اعتراف بحصانتها. ومن المرجح أن حصانة المدينة كانت تشترى شراء. وقد حصلت صور أولاً على استقلالها بهذه الطريقة. وكانت امتيازات المدن التي كانت تحصل على مثل هذه الحصانة تشمل الحماية ضد عدو خارجي (القرصنة كانت العدو الخارجي آنذاك للمدن الفينيقية) والإعفاء الكلي أو الجزئي من الضرائب، وممارسة التحكم القضائي، واعتبار المدينة مأمناً للاجئين السياسيين الذين يقصدونها هرباً من ظلم سياسي. وكان هؤلاء اللاجئون السياسيون يزيدون في عدد سكان المدن ويعملون على إنماء اقتصادها. وكانت أرواد أول مدينة نالت الامتياز بأن تكون ملجأً سياسياً، إذ منحها هذا الامتياز كيلينيكوس سلوقس الثاني (٢٤٦ - ٢٢٦). ثم تلتها مدينة صور في أيام أنطيوخس أبيفانوس. ومنذ عام ١٢٥ ق.م. استقلت استقلالاً تاماً. وما دلّ على ذلك النقود؛ إذ نرى على الوجه الواحد من هذه النقود صورةً أو تمثالاً لشيء إغريقي، ممّا يدلّ على شيء من الاعتراف بالحكم المقدوني. وعلى الوجه التالي رسماً أو صورة لشيء فينيقي (صورة ملكارت مثلاً) ما يدلّ أيضاً على شيء من الاستقلال الذاتي. ثم تلتهما في نيل الاستقلال بقية المدن الفينيقية: طرابلس وجبيل وصيدا وعكا، فضلاً عن مرتوس وبيروت. وكلها صكت نقوداً باسمها. وكان لهذه المدن المستقلة الحق والصلاحية

في حسم خلافاتها في ما بينها دون اللجوء إلى الحكومة المقدونية المركزية. إلا أن هذا الاستقلال يختلف كلياً عن الاستقلال الذي نعمت به فينيقيا من قبل عندما لم تكن هناك قوى خارجية؛ إذ كان هذا الاستقلال الجديد خالياً من الروح القومية والشعور الوطني الذي فارق قلوب الناس مطفئاً تلك الشعلة التي كان يتميز بها الخلق الفينيقي القومي.

الأرمن قوة عظمى

وظهرت في تلك الفترة خلافة حديثة في سورية وهي أن أرتاس أحد ملوك العرب من آل غسان قصد دمشق وافتتحها مستخلصاً إياها من أصحابها السلوقيين عام ٨٥ ق.م. في حين كان ملك أرمينيا تيغرانس (ديكران) ينتظر الفرصة لتوسيع حدود ملكه، فتحقق له ذلك عام ٨٣ ق.م. باستيلائه على المدن السورية، بينما كانت رومة مشتبكة بحرب ضروس مع الفرتيين الذين كانوا قد وسعوا امبراطوريتهم حتى أصبحت من الفرات إلى السند، ومن جيحون حتى المحيط الهندي. أما في الغرب فقد وقف تيغراس قبل احتلاله المدن السورية في وجه الجيوش الفرتية بعدما عقد حلفاً مع حميه مترادتس ملك البونت (بنطس) الواقعة على الشاطىء الجنوبي الشرقي للبحر الأسود، مكنه من اجتياح جزء كبير من بلاد ما بين النهرين (العراق القديم) وميديا. ثم بدأ يحارب السلوقيين المستضعفين للاستيلاء على الجزء الشمالي من سورية وكيليكيا التي كان لسكانها روابط عرقية مع الشعب الأرمني (يشبهون الآراميين).

وفيما كان الأهالي ينتظرون مخلّصاً ينتشلهم من الفوضى والتشويش، ويردّ إليهم الحياة المستقرة، لم يبدوا أي مقاومة تذكر ضد جيوش تيغرانس الذي عيّن رئيس عسكره مكادانس والياً على سورية. أما الملوك السلوقيون فأخذوا يلتجئون إلى البلاد المجاورة، على أن سالان زوجة أوسبيوس توجهت إلى عكا (وكان اسمها آنذاك بطوليميوس نسبة إلى بطليموس الأول) وحصنتها، ومنها بدأت تحارب العدو. إلا أن تيغرانس الذي بلغت في عهده أرمينيا الذروة في التوسع والمنعة، ولقب بـ «ملك الملوك»، فتح المدينة عنوة عام ٦٩ ق.م. وقاد سالان أسيرة إلى

سلوقية التي بين النهرين. وهناك قتلها وبنى مدينة ملكية جديدة هي تيغرانوسرتا في منطقة الدجلة.

وبينما كان يوسع ممتلكاته على حساب الفرتيين والسوريين كان حموه مترداتس ينشىء امبراطوريته بضم المقاطعات الرومانية في آسيا الصغرى، فأوقفته الجيوش الرومانية عند حده وطردته من البلاد فالتجأ إلى تيغرانس، فرحب به ورفض تسليمه، ما دفع بدوره إلى إعلان الحرب عليه. فاضطر عندئذٍ إلى سحب حاميته من سورية عام ٦٩ ق.م. لتستمر بذلك سلطة الأرمن على سورية أربع عشرة سنة فقط استرجع بعدها الأمير السلوقي أنطيوخس الثالث عشر ابن أوسيبيوس الملقب بالآسيوي (٦٩ - ٦٥)، منطقة أنطاكية برضى واعتراف رومة.

ولكن أميراً سلوقياً آخر يدعى فيليب الثاني (٦٨ - ٦٤) رفض الاعتراف بحكمه وبدأ يناوئه شرعية الحكم. وكان هذان الأخيران آخر ملوك الأسرة السلوقية في سورية. ولم تمض فترة طويلة بعد ذلك حتى تمكن مترداتس من استعادة العرش الذي فقده، ففاجأه القائد الروماني المشهور بومبي بإعلان الحرب عليه فاحتل البونت (٦٤ ق.م.) وهزمه وأرغم تيغرانس الأرمني على طلب الصلح لقاء تخليه عن كل الأراضي المحتلة بما في ذلك سورية. وفي العام نفسه احتل الجيش الروماني فينيقيا وأصدر بومبي قراراً بأن تحكم سورية مباشرة من جانب نائب قنصل روماني ليبدأ عهد جديد، العهد الروماني، وتنقرض الدولة السلوقية بعد ٢٤٧ سنة من الحكم تولى خلالها ٢١ ملكاً العرش، ولعبت المرأة دوراً مميزاً في تلك الحقبة حيث كان الزواج أمراً لا مفر منه لعقد اتفاقات الصلح فكان دائماً سيد المكان والزمان.

الفصل السادس

لبنان في ظلّ الحضارة الهلّينيّة

التجارة

سعى السلوقيّون إلى جعل لبنان مركزاً مهمّاً لتجارة دولتهم الواسعة، فكانت سلعهم التجاريّة، على اختلاف أنواعها، والتي يؤتى بها من آسيا الوسطى، تخزّن أوّلاً في لبنان، ومن هناك تصدّر، حسب الحاجة، إلى مختلف أرجاء العالم الإغريقي.

وكانت السلع التجاريّة تختلف بين الحرير الذي يستورد من الشرق الأقصى، وخصوصاً من الصين، والأحجار الكريمة من آسيا الوسطى، والبهارات على أنواعها من الهند، وغيرها من المواد التي كان الإغريق يستوردونها من الخارج لاستهلاكها محلّياً.

وبسبب الفتوحات العسكرية الواسعة التي قام بها الإغريق، وخصوصاً في عهد الاسكندر المقدوني، درجت تجارة الرقيق الذين كانوا من أسرى الحرب، أو من الأشخاص الذين يقعون في أيدي القراصنة.

وقد اعتمد الإغريق في طرقات التجارة تلك على التي كانت معروفة منذ القدم. فالقوافل التي كانت تأتي من مصر أو البتراء، أو من الساحل الفلسطيني، باتجاه الشمال، كانت تسلك، برّاً أو بحراً، الساحل الفينيقي، أو تسير في محاذاة الشاطىء. وإذا كان اتّجاهها شرقاً فإنها كانت تنعطف نحو وجهتها بعد وصولها إلى صور.

وكانت قوافل أخرى تنطلق من المدن الفينيقية باتجاه الشمال والشرق، قاصدة اللاّذقيّة وحمص، فيما كانت أخرى تتوجّه جنوباً، نحو فلسطين أو مصر.

من ناحية ثانية، تعرّضت المدن الفينيقيّة لمنافسة مصريّة شديدة في تجارة الترانزيت وأخذت القوافل البريّة التي كانت تمرّ في لبنان تغيّر من اتّجاهها. والذي ساعد مصر على تبوّؤ هذا المركز الطريق البحريّة التي كانت تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر. ولعلّ هذا الأمر دفع الإغريق إلى بناء المنارة الشهيرة في الاسكندريّة والتي سمّيت «فاروس» وذلك في عهد فيلادلفيوس بطليموس الثاني.

الزراعة والصناعة

نشطت الزراعة والصناعة في لبنان في زمن الإغريق، وازداد إنتاجهما معاً. وفي تلك المرحلة التي عرفت فتوحات عسكريّة كبيرة، ظهرت نتيجة هذه الفتوحات أنواع جديدة من المزروعات لم تكن معروفة من قبل، كالفستق الحلبي الذي استقدم من بلاد فارس وزرع في سوريّا، ثمّ في اليونان وإيطاليا ولبنان وغيرها.

واهتمّ الفينيقيّون بزراعة الكرمة والزيتون. وبقي الخشب الذي كان يقطع من غابات لبنان، مورداً أساسيّاً لبناء الأساطيل الإغريقيّة والقصور والهياكل. وقد شمل قطع الأشجار، بالإضافة إلى الأرز، الشربين والسرو والعرعر.

وفي المجال الصناعي، بقيت صناعة النسيج وصباغ الأرجوان تحت السيطرة الفينيقيّة التامّة. وقد حافظ صنّاعها على أصالتها وجودتها المعهودتين. كما حافظ الفينيقيّون على مكانتهم في صناعة الزجاج، وكان الطلب عليه كثيفاً في الأسواق الخارجيّة. وقد استطاع الفينيقيّون تأمين حاجات الأسواق بأفضل ما لديهم من أنواع الزجاج.

وفي الصناعة التعدينيّة، كان الاقبال شديداً على استخراج النحاس من الأراضي اللبنانيّة. أما الحديد فكان يستورد من الخارج لقلّة وجوده في لبنان. وكان المعدنان يستخدمان في صناعة الأسلحة والأواني المختلفة والسفن وغيرها.

وفي تلك المرحلة، تمّ الاستغناء عن الطين لتدوين الكتابات، واستبدل بورق البردي الذي كان يستورد من مصر حيث كان يكثر على ضفاف النيل. واستخدمت جلود الحيوانات المدبوغة في المجال نفسه.

العمران والأعياد

راق الفينيقيّين فنّ العمران لدى الإغريق، فراحوا يقلّدونهم في هندسة المدن والأبنية. وبنوا على النمط اليوناني المسارح والملاعب الرياضيّة والحمّامات العامّة.

وفي مجال آخر، أخذ بعض المدن الفينيقيّة عن الإغريق بعض أعيادهم وراحت تحتفل بها، لكن صور لم تلتزم بهذا التقليد.

اللغة

اعتاد الفينيقيّون من سكّان المدن على التكلّم باللغة اليونانيّة التي كان عليهم أن يتعلّموها ويتقنوها لكي يستطيعوا التعاطي بسهولة مع الشعب المحتلّ. لكن اللغة الكنعانية بقيت اللغة الشائعة في المناطق الجبليّة، لأن حاجة الجبليّين إلى اليونانيّة لم تكن ماسّة كحاجة سكان المدن الذين كانوا يهتمّون بالفلسفة والآداب والعلوم الإغريقيّة.

ومع الوقت، راحت اللغة الآراميّة المنتشرة في بعض أنحاء سوريا تحلّ تدريجاً محلّ اللغة الكنعانيّة في المناطق الفينيقيّة، وبالتحديد على الصعيد الشعبي، فيما بقيت اللغة الكنعانيّة لغة الدوائر الرسميّة والمعاملات. واستمرّ التداول بها حتى ما بعد نشأة المسيحيّة.

ما أخذه الإغريق

عندما احتلّ الإغريق الساحل الفينيقي، كانوا يعرفون أنهم يخضعون شعباً يتمتّع بحضارة راقية. وقد نهلوا منها مراراً عندما كان الفينيقيّون يحلّون في الجزر اليونانيّة حاملين معهم بضائعهم التي صنعت بيد الفنّ والابداع. وقصّة قدموس الذي نقل حروف الأبجديّة إلى اليونان وعلّمها لأبناء من تلك البلاد هي من أبرز الأدلّة على ما أدّاه الفينيقيّون لليونان على الصعيد الحضاري.

واقتبس الإغريق أيضاً بعض عادات الفينيقيّين، ولا سيّما الدينيّة. فأخذوا عنهم بعض آلهتهم؛ فالإله بعل أصبح زوس وملكارت أصبح هرقل، وقلّدوا

الطقوس الدينيّة التي كانت تقام في مطلع الربيع للإلٰهين أدونيس وعشتروت.

الفلسفة

شكّلت الفلسفة العنصر الفكري الوحيد الذي برز فيه الفينيقيّون أيّام الإغريق. وكان ركنها فينيقيّ من قبرص يدعى زينون الذي درّس الفلسفة في أثينا ابتداء من سنة ٣٠٢ ق.م. وكان يلقي محاضراته في مكان يُسَمّى Stoa poikile، ويعني الرّواق المدهون. من هنا جاءت تسمية مدرسته بالرّواقية. ومن أبرز ثمار هذه المدرسة أثر كتابي بعنوان «الجمهوريّة» يتحدّث فيه عن تصوّره للدولة المثاليّة، حيث الحرّية تشمل جميع المواطنين، وحيث النساء والممتلكات مشاع للجميع.

ويتحدّث أيضاً عن الحكمة لدى المرء التي تشكّل مصدر سعادة دائمة له. لذا، تصبح الحكمة رجاء يسعى كلّ إنسان إلى تحقيقه طالما أنه يؤدّي إلى الهدف لكلّ إنسان، ألا وهو السعادة.

وأبرز من تأثّر بفلسفة زينون كان القديس بولس، أحد أبرز رسل المسيحيّة. وعند وفاة زينون، وصفه أحدهم بأنه كان «أفضل إنسان في عصره». وقد كتبت على ضريحه العبارة التالية: «أما كفاك فخراً أن فينيقية موطنك. ألم تنجب فينيقية قدموس الذي جاء بلاد الإغريق ليعلّم الناس الحرب»[١].

ومن الفلاسفة الفينيقيّين الذين تأثّروا بالرواقيّة بيوثس الصيداوي وأنتيباتر الصوري.

وهناك أيضاً الفيلسوف الصوري ديودوروس الذي برز في أثينا كأبرز مؤسّسي المدرسة الفلسفيّة المشائيّة.

وعلى رأس المدرسة الأبيقوريّة في الفلسفة في أثينا، كان هناك فينيقيّ آخر هو زينون الصيداوي، وأنتيباتر الصيداوي الذي كتب الشعر أيضاً، وكان أقدم من عدّد عجائب الدنيا السبع[٢].

---

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتي، صفحة ٢٢٢.

(٢) المرجع نفسه، صفحة ٢٢٤.

القسم الثاني

لبنان في العهد الروماني

جوزف صقر

الفصل الأول

نشأة روما وتوسّعها

لمحة تاريخيّة

لا بد من إلقاء نظرة عاجلة على الشعوب التي سكنت شبه الجزيرة الإيطالية قبل مجيء الرومان وفرض سيطرتهم على تلك الأنحاء، حتى نتمكن من فهم الأحداث الكبيرة التي قلبت تاريخ البشرية القديم رأساً على عقب. فمن سيطرة محدودة كانت لا تتعدى مناطق أوروبية معينة، فرض الرومان سيطرتهم على مجموع العالم القديم المعروف آنذاك بقاراته الثلاث: أوروبا، آسيا، وأفريقيا. وأصبح معها البحر المتوسط بحيرة رومانية. وبالتالي، فإن الرومان باتوا هم ورثة الحضارة الهلينيّة اليونانية. وروما صارت مركز العالم القديم التي ستمد سيطرتها ونفوذها لعدة قرون، وتشهد ولادة المسيحية قبل أن تسقط متقهقرة أمام «الريك» البربري الذي نهب المدينة الخالدة عام ٤١٠ م. وهو حدث فاصل في التاريخ القديم، وربما كان من أهم أحداثه.

هويتها ومواطنها

تقاسمت سكن شبه الجزيرة هذه ثلاثة شعوب هي:

١ ـ الليغوريون في الشمال.

٢ ـ الإيطاليون، ومنهم الآخيون والدوريون في الوسط ومنهم تفرّع اللاتين والسابينيون.

٣ ـ الإغريق: سكان المناطق الجنوبية وهم رواد الحضارة الهلينيّة.

ولكن الذين لعبوا دوراً مميزاً في خلق روما وحضارتها هم بلا شك الأتروسكيون.

١ ـ **الليغوريون**: سكنوا في مناطق الشمال الغربي من شبه الجزيرة الإيطالية بالإضافة إلى المناطق الغربية والوسطى من جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا. وكانت هذه الأقوام تحتل مناطق أوسع امتدت إلى حدود جبال الألب في الشمال، وبقيت سيطرتها عليها حتى منتصف السنة ٦٠٠ ق.م. وعرفت مناطق سكناهم باسم مقاطعة ليغوريا. ويستدل من الدراسات العديدة التي أجريت حول هذا الموضوع أن هناك ترابطاً دموياً بين الليغوريين والإيباريين الذين يعتبرون من أقدم الشعوب والأجناس البشرية التي وطأت أرض إيطاليا، لكنها اضطرت إلى التوجه غرباً بعد قدوم الشعب المعروف بالشعب الإيطالي.

٢ ـ **الإيطاليون**: هم من القبائل الهندو ـ أوروبية التي اجتاحت المناطق الشمالية الشرقية والوسطى، إضافة إلى المناطق الجنوبية، ومدوا سيطرتهم إلى النواحي الشرقية من صقلية، وقد تفرعوا إلى عدة قبائل يجمعها قاسم اللغة. ومنهم: اللاتين والسمنيون والغنيون، وربما استقروا بحسب بعض المصادر قرابة الردح الأخير من الألف الثاني في مناطق سكناهم.

٣ ـ **الإغريق**: ترجح المصادر أنهم أتوا من اليونان بعد الحروب التي حصلت بين أثينا واسبارطة وسقوط اليون. وهذه الشعوب تعود إلى أصول آسيوية ويعتقد أن مناطق آسيا الصغرى هي موطنهم الأصلي.

إستقروا عند قدومهم إلى إيطاليا في مناطق صقلية الغربية بالإضافة إلى المناطق الجنوبية من السواحل الإيطالية، حيث أسسوا مدناً عديدة أحلوا فيها الحضارة الهلينيّة، وسمّوها «اليونان الكبرى».

الأتروسكيون

لعب الأتروسكيون الدور الأهم في شبه الجزيرة، وأول ما عرف عنهم أنهم هددوا المناطق الجنوبية من إيطاليا حيث توطن الإغريق، كما مرّ معنا. وتختلف المصادر في منشأ هذا الشعب؛ فالبعض يرجعه إلى شعوب أوروبا الشمالية، حيث نفذ إلى إيطاليا عبر فجوات الألب. والبعض الآخر يرى أن الأتروسكيين قبائل انطلقت من مناطق آسيا الصغرى وغزت السواحل المتوسطية وتوطنت فيها، ولا تعطي تحديداً دقيقاً لزمن استيطانها. والقسم الأخير يرى أن الشعب الأتروسكي كان نتيجة انصهار وتمازج داخلي فرض نفسه بعد الاتصال والعلاقات العديدة، وليس بالضرورة أن يكون الأتروسك من الغزاة الطامعين أو من أفراد القبائل الأجنبية، ولكن قد يكونون نتيجة منطقية لتلاقي وتآلف الشعوب السابقة في ما بينها وعملها المستمر في حياة مشتركة. فأقام هذا التعقيد الإثني لأجناسهم والتضارب الجغرافي لمنشئهم. وتبقي الفرضية التي تقول بأصولهم الشرقية هي للرجحة دون أن يكون لها عامل حاسم يؤكدها بشكل حصري.

خصائص هذا الشعب

تميز الأتروسك بالقوة والمنعة، وقد أسسوا مدناً عديدة في رقعة انتشارهم بين البحر التيراني ونهر التيبر حيث سيبنون فيما بعد مدينة روما.

وجلّ ما عرف عنهم أنهم لم يقيموا حضارة زراعية في مناطق كانت تغلب عليها برودة الطقس نسبياً، وإنما اشتهروا بالناحية الصناعية التي اعتمدت على استخراج النحاس من مقاطعة أرتوريا. وهذا ما دفعهم إلى اعتماد وسائل التجارة لتصريف منتوجاتهم خاصة في جزيرتي كورسيكا وسردينيا القريبتين.

إن العمل في مجال الصناعة المعدنية وتلك المتفرعة عنها في صناعة

الخزفيات كالبرونز، أعطى الأتروسك موارد مالية أسهمت إلى حد بعيد في نمو اقتصادهم وتطورهم حيث ظهرت في صفوفهم طبقات اجتماعية غنية.

وإذا أضيف المال إلى القوة العددية فإن الشعب يستطيع أن يتوسع في حدوده وانتشاره وحركة بنائه. وهكذا تنطبق هذه الواقعة عليهم، فنراهم يجاورون المناطق الجنوبية ذات الأغلبية الإغريقية ويسيطرون على كمبانيا حيث ستشكل مدينة يوسيدونيا الإغريقية حلقة اتصال بين هذين الشعبين.

لكن ما يعرف عن علاقتهم بالإغريق بشكل عام أنها اتسمت بالحروب والتصادم. كما أجبرتهم قرطاجة على إخلاء جزيرة سردينيا. أما في المناطق الشمالية، فقد استطاع الأتروسكيون مد نفوذهم وسيطرتهم إلى جبال الأبنين ومنها إلى سهل البو ونهره الشهير في مجراه الشرقي حيث الساحل الأدرياتيكي.

وبالإجمال فإن الحضارة التي خلقوها قامت على المدينة حيث كان لهم مجموعة «التريكابول»، أي حلف الاثنتي عشرة مدينة في أتروريا، رئسه والٍ يتولّى إدارته.

وقد اتبعوا في أول أمرهم النظام الملكي ولربما عرف نظام التجمعات المدنية شيئاً من النظام الاتحادي. وما تجدر ملاحظته إلى أن الحروب الداخلية عمت المدن الأتروسكية نتيجة الخلافات بين الطبقات الغنية وطبقات العامة من الناس التي دأبت على المطالبة بامتيازات معينة.

ويذكر أن الملوك أحاطوا أنفسهم بمظاهر التكريم، حتى أن القضاة حذوا حذوهم. ومردّ ذلك هو إلى اختيار الملوك في بعض الأحيان من بين هؤلاء.

أفكاره الدينية

وكمثل معظم الشعوب القديمة التي كان فيها المنتصر يأخذ بعض مظاهر حياة المهزوم ونمط أفكاره وتوجهاته الدينية، هكذا أخذ الأتروسكيون مظاهر العبادة التي وجدوها بين شعوب شبه الجزيرة. فمنها ما هو إيطالي ومنها ما هو إغريقي. وأبدلوا أسماء البعض منها وتركوا أسماء الأخرى كما كانت. ومن أشهر آلهتهم:

أوني وماريس وهرقيليس وأبولون، إلٰه الجمال والفنون والشمس. وتميز الأتروسكيون بخضوعهم لآلهتهم التي اعتقدوا أنها تحرك كل مناحي حياتهم وأعمالهم. ولذلك عملوا على مراضاتها وكسب مودتها لكي تساعدهم وتحميهم، واعتقدوا بالسحر والتعاويذ والطلاسم ورأوا أنها تقيهم الشرور المترابطة بهم.

الإيمان بالحياة الثانية

دلت الاكتشافات الأثرية على أنهم آمنوا بحياة ثانية بعد الموت، وبخلود النفس؛ لأنهم كانوا يضعون ضمن المدافن والقبور الكثير من المفروشات والأثاث، وحاولوا إبعاد فكرة الحزن عن الطابع الجنائزي والمراسم التي ترافق تورية الموتى، لاعتقادهم بأنه لا داعي لهذه الأحزان طالما في الأمر حياة ثانية.

من ناحية أخرى، ميزوا بين مملكة النعيم حيث يعيش المختارون من أبناء الطبقات الغنية وبين الممالك السفلية المظلمة حيث ينحدر الفقراء والمساكين. وقد سيطرت هذه الناحية على معتقداتهم منذ الجيل الرابع ق.م. حتى ظنوا بأن جميع المائتين سيكون مصيرهم نحو مملكة الظلام. يبدو التأثير الهليني في ذلك واضحاً، وتظهر الميثولوجيا الإغريقية بأبهى مظاهرها مع ملاك الموت «شارون» Charon الذي تحيطه الأبالسة لتخطف الميت من حياته وتعدمه إياها.

ميلهم إلى الفنون

إن الفن المادي والأرباح التي جمعوها من جراء عملهم في التدوين والتجارة جعلتهم ينصرفون إلى الفنون بمختلف مظاهرها فاستخدموا البرونز لصنع التماثيل ولتزيين دورهم وقصورهم التي بنوها بحسب قواعد هندسة العقد Voute، متأثرين بذلك بما وصل إليهم من الشرق، وقد أدخلوا تعديلات عليها تتماشى وأذواقهم. وصرفوا الأموال الطائلة لشراء تماثيل من العاج والذهب، مهملين فن النحت والنقش.

ضمور حضارة الأتروسك

إن الضعف السياسي الذي أصاب النظام الملكي في روما تزامن مع خبو

مدنية الأتروسك الذين ظلوا لفترات طويلة في عراك وقتال مع جيرانهم الإغريق. ورغم ذلك، فإن المؤثرات الإغريقية فعلت فعلها في الشعب الأتروسكي وطريقة حياته فلم تنقطع الصلات الثقافية بين الطرفين.

وانتهى النظام الملكي حوالي نهاية الجيل السادس ق.م. حين سيطرت روما على مدينة فايي الأتروسكية التي حاولت ضبط مداخل التيبر. ومن هناك تابعت روما تقدمها حتى أخضعت كامل مقاطعة أتروريا. وما يفهم من لغز هذه السيطرة الرومانية أن أغلبيّة المدن الأتروسكية الأخرى اتخذت موقعاً محايداً في مسألة الصراع بين روما وفايي.

ولم يكن نصيب كمبانيا أحسن، إذ هاجمها الإغريق سكان سيراكوزة وانتصروا عليها سنة ٤٧٤ ق.م. وحطموا أسطول الأتروسك بعد موقعة بحرية ضده. ومن هناك دخلوا إلى جزر ألبا وكورسيكا.

وأتى السمنيون بدورهم باتجاه الساحل بعد أن استولوا على كابو وتبعهم الغاليون بالسيطرة على البو وعلى فلانسيا.

وخلال الجيل الرابع حاول الأتروسكيون استعادة أمجادهم الماضية، لا سيما بعد الانحطاط الذي أصاب حضارتهم، عن طريق معاودة الاتصال بحضارة الإغريق الهلينيّة، لكن محاولاتهم جاءت متأخرة بعض الشيء، خاصة وأن الصراعات الدموية كانت قد أضعفتهم وجعلتهم غير قادرين البتة على مجابهة قوة روما

روما في الأسطورة

جاء في الأسطورة أن تأسيس روما كان على يد الأخوين رومولوس وريموس، وهما متحدّران من الآلهة وحفيدا الملك نوميتور الذي اغتصب ملكه أخوه إميليوس وألقى بالأخوين، وكانا لا يزالان طفلين، على ضفاف نهر التيبر. وقد وجدتهما ذئبة فأرضعتهما حتى كبرا فعثر عليهما راعٍ واعتنى بهما إلى أن استعادا الملك لجدّهما وقتلا إميليوس المغتصب. وكانَ تأسيس روما سنة ٧٥٤ ق.م.

المستحدثة والغنية.

لكن ما تجدر ملاحظته أنه بالرغم من الفشل السياسي الذريع الذي مني به الأتروسكيون، فإنهم استطاعوا أن ينقلوا حضارتهم ذات الجذور الهلينيّة إلى مناطق واسعة في إيطاليا بعد أن طبعوها بطابعهم المميز، ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن روما حكمت منذ تأسيسها من قبل سلالات ملوك من الأتروسكيين بقيت حتى تاريخ إعلان الجمهورية، وكان لها أدوار في الحكم والجيش والقضاء. وتعدى التأثير الأتروسكي الإطار السياسي إلى النواحي العمرانية والثقافية، فأخذت روما العديد من هذه النظم وأدخلتها في حياتها وحياة شعوبها.

التوسع الروماني

بعد انتصارهم على الأتروسكيين وإخضاعهم الشعوب التي تسكن شبه الجزيرة، انصرف الرومان باتجاه مد سيطرتهم إلى مناطق جديدة شملت القارات القديمة الثلاث: أوروبا وأفريقيا وآسيا. هذه الحروب التي ستنتهي بالسيطرة الفعلية على هذه القارات.

روما وقرطاجة

سوف تكتفي بإعطاء لمحة موجزة عن علاقة روما بقرطاجة والحروب التي خاضوا غمارها، لأننا أفردنا فصلاً خاصاً لهذا الموضوع في الجزء الثاني من الموسوعة (ص ١٢٦ - ١٣٤).

ومن المفيد التذكير بأن وجود قرطاجة على الساحل الإفريقي، قريباً من الأراضي الإيطالية، كان بحدّ ذاته سبباً كافياً لبروز الخلافات.

فقرطاجة المستعمرة الفينيقية الصغيرة التي أنشأها تجار مدينة صور حافظت على طابعها الأصلي الفينيقي، ووقفت حاجزاً منيعاً يصدّ موجة الهلينة، تماماً كما كان الحال مع صور التي قاومت زحف المقدونيين بإباء وعزة، ورفضت أن تنصاع للاسكندر؛ فلم يدخل إليها إلا وهي ركام وخراب.

في الوقت عينه، راحت قرطاجة توسع عملها ناحية الغرب، حيث كانت روما لا تزال منشغلة بإتمام سيطرتها على داخلية إيطاليا وسواحلها، دون أن تكون لها في حينه مطامع إقليمية بسبب انشغالاتها المحلية.

لكن الانتصار الروماني في شبه الجزيرة دفع بهذا الشعب إلى الخروج نحو آفاق جديدة حاملاً معه أفكاره ومعتقداته. فكان العالم القديم هو المدى الأرحب الذي سيتلقى موجات فتوح القادمين الجدد. وبذلك واجهت قرطاجة وطأة الحرب بعد فترة هدوء دامت قرابة سبعة أجيال، وراحت تعاند روما وتغالبها في عقر دارها. وهذه البلاد الصغيرة استطاعت أن تصبح امبراطورية واسعة وتخوض مع روما ثلاثة حروب عرفت بالحروب البونية أو «الفونية» واستمرت على ثلاث مراحل سجالاً بين الفريقين إلى أن انتهت بمعركة زاما سنة ٢٠١ ق.م. فدمرّ الرومان قرطاجة تدميراً نهائياً وحرثوا أرضها وأتموا سيطرتهم على بعض أجزاء أفريقيا الشمالية. وبعد أفول نجم قرطاجة في تلك الأنحاء من أفريقيا الشمالية، تيسر للرومان الالتفات ناحية الغرب فعبروا نحو غالية (فرنسا).

التوسع نحو الغرب

سكن البلاد التي تسمى اليوم فرنسا شعب عرف بالشعب الغالي Galois، وهو الذي أعطى اسمه للبلاد الواقعة في ما وراء الألب بين السين والأطلسي. ويرجح بعض الباحثين أن نسبهم يعود إلى أصول كلتية، فيما يرى آخرون أنهم شعب له مميزاته التي تمازجت وتلاقت مع شعوب أخرى وأدت إلى نوع من التعدد داخل الوحدة. فهنا ستجد مزيجاً من الغاليين والبلجيك والأكيتيين، ولكل واحد من هؤلاء خصائصه. وقد سقطت المناطق الواقعة قريباً من سواحل المتوسط قبل عهد أغسطس قيصر.

وكانت اللغة الإسبانية القديمة هي اللغة السائدة في تلك البلاد، واستعملها الشعب للكتابة والتخاطب، واستطاع «الباسك» أن ينفذ بنفسه ويحافظ على مناطق تواجده بمعزل عن الفتح الروماني. أما مناطق البلجيك فقد ينعت وحان قطافها

مع قيصر.

ونشير هنا إلى أن الشعوب الغالية كانت على درجة من الرقي والحضارة؛ فهي في الجيل الثالث، كانت تملك عملة ذهبية شبيهة بتلك التي ضربها فيليبس المقدوني. ثم تظهر بوضوح التأثيرات الرومانية في العملات الفضية التي سكّت في مطلع الجيل الثاني، مما يسّر حركة التبادل التجاري إلى جانب الازدهار الزراعي والصناعي.

إذن عند فتح المناطق الجنوبية حوالي السنة ١١٨، ستجد هذه المناطق نفسها في مواجهة عدو روماني عنيف، وسوف تمتد هذه السيطرة نحو الأطلسي وصولاً إلى ضفاف نهر الرين مع حملة يوليوس قيصر التي انتهت سنة ٥١ ق.م. ويقال أن أعداد القتلى بلغت الآلاف، وسبي الكثيرون أو بيعوا في أسواق الرقيق. وفرض الرومان جزية باهظة ومرهقة لقاء ترك السكان يعيشون في ظلّ أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة قبلاً. وعمدوا، إضافة إلى ذلك، إلى إقامة مستعمرات رومانية في أجزاء البلاد؛ لكنها بقيت قليلة العدد. ورويداً رويداً، راح سكان السواحل والمدن الغالية يبدّلون نمط حياتهم في شكل يتلاءم مع مدنية الرومان وما لبثوا أن تكيفوا مع المستعمرين الوافدين تاركين حضارتهم تتراجع وتندثر في محطات الإهمال، حتى بدا الأمر وكأنه طلاق مع الماضي.

وانعكس دخول الرومان إلى غاليا عليهم بفوائد جمّة تمثّلت بكثرة الأموال والثروات التي جنوها، إضافة إلى الموارد الزراعية والصناعية الكثيرة التي استغلوها لفترات مديدة، وما لهذه البلاد الوافرة المساحة من مقومات بشرية وسكانية وفرت لهم أعداداً من خيرة المتطوعين في الجيوش التي فتحت أمامهم أبواب العالم الموصدة.

وخلاصة القول أن غاليا شكلت بالنسبة لروما المدى الحيوي الواسع الذي أفادها في لحظات الشدة والتوتر وفك الكثير من أزماتها. فكما كانت أراضي البقاع اللبناني «اهراءات روما»، كذلك فإن السهول الغالية والموارد هناك كانت أهم بكثير لأنها وفرت لها كل ما احتاجته.

التوسع شرقاً

قبل إخضاع الغرب لسلطانهم اتجه الرومان نحو الشرق الأدنى حيث وصلوا إلى حدود الفرات. وقد استنزف التوسع ناحية الشرق أوقات طويلة فدخلت روما إلى بلاد اليونان مع السنة ٢١٢ ق.م. وانتصرت على الجيش المقدوني سنة ١٩٧ حيث رأى أنطيوخس سانحة لاسترجاع ما كانت أسرته قد فقدته في آسيا الصغرى وتراقية، فأوفد في شتاء السنة ١٩٨ ـ ١٩٧ ق.م. وفداً يطمئن روما ويؤكد لها إخلاصه وولاءه وأعد العدة في الوقت نفسه للعمل الحربي في الشمال. ولم تستطع روما الانتصار النهائي على الجيش المقدوني إلا سنة ١٦٧ ق.م.

١ ـ الحرب بين أنطيوخوس وروما. (ورد الحديث عنها في القسم الأول من هذا الكتاب)

السيطرة على مصر

اختلف الرومان أنفسهم في أمر التوسع في الشرق فكان رأي كراسوس ورولوسس يقول بضرورة الاستيلاء على مصر وضمها إلى الامبراطورية سنة ٦٥ ـ ٦٤. وكانا يمثلان الأوساط الديمقراطية.

لكن شيشرون ممثل الأرستقراطيين رفض الأمر فنتج عن ذلك عدم اعتراف روما بحكم بطليموس Nothos عليها ولكنها لم تنكر عليه حقه.

وبعد عشرين سنة من التردّد قبل كل من قيصر وبومبيوس لقاء مبلغ كبير من المال دفعه بطليموس الاعتراف به، واستصدرا قراراً يقضي بذلك في سنة ٥٩ ق.م.

وفي سنة ٥٨ عرضت روما على صاحب قبرص ضم الجزيرة إليها مقابل

تعيينه كاهناً أعظم على هيكل أفروديت، لكنه انتحر وانتقلت أمواله إلى روما. أما في مصر فقد حكم بطليموس نوتوس حتى سنة ٥١ ق.م. تاركاً أربعة أولاد كبيرتهم كليوباترا السابعة التي تناحرت مع شقيقها بطليموس الثاني عشر، وتدخل الاسكندريون إلى جانبه وأرغموا كليوباترا على الخروج من مصر.

لكنها ما لبثت أن عادت إلى الملك بمساعدة يوليوس قيصر الذي زحف على رأس جيشه وانتصر في معركة فرسلوسة. لكن الاسكندريون تدخلوا مطوقين الاثنين معاً؛ فاستنجد قيصر بوالي سوريا الذي أوفد إليه جيشاً محارباً بقيادة مترداتس، وتمكن قيصر من إخماد الفتنة وهرب بطليموس الثاني عشر فتولت كليوباترا العرش مع أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر. وتوفي يوليوس قيصر سنة ٤٤ فقتلت كليوباترا أخاها وادعت أن قيصريون هو ابنها من قيصر.

وكان أنطونيوس أحد قواد قيصر قد تسلم الشرق بموجب اتفاقية العام ٤٠ ق.م. فلما وصل إلى مصر فتن بجمال كليوباترا وفضل البقاء بين الاسكندرية وأنطاكية، ومنهما حكم الشرق إلى حدود الفرات، وطلق زوجته أوكتافية وأقام مع كليوباترا، وأعاد إلى ممتلكات مصر أجزاءً من سورية وكيليكيا وقبرص. وتواردت أخبار إلى روما مفادها أن كليوباترا تطمع في الوصول إلى حكم الامبراطورية، وحصلت موقعة أكثيوم حيث حوصرت الاسكندرية وانتحر أنطونيوس وتبعته كليوبترا بالانتحار، فجعل أوكتافيوس مصر بلاداً رومانية في حدود السنة ٣٠ ق.م.

التنظيم السياسي

إن الفتوح الرومانية جرت في معظمها خلال عهد الجمهورية التي نظمت على أساس تقسيم السلطات بين قنصلين يتوليان القيام بأعباء السلطة التنفيذية لمدة سنة واحدة تنتخبها جمعية تقوم بإعداد القوانين ويراقب هذه الجمعية والقنصلين مجلس للشيوخ مؤلف من ٣٠٠ عضو. ولكن، بنتيجة الفتوحات والحروب التي خاضها الرومان في الخارج، برزت طبقة من القادة العسكريين سيطرت على السلطة ومارست حكماً استبدادياً من سنة ١٠٧ ق. م حتى سنة ٣٠ ق.م. عند قيام

الامبراطورية.

وخلال هذه الفترة برز اسم الدكتاتور سيللا، وحاول بومبيوس الاستئثار بالنفوذ في مناطق الشرق وتحالف مع يوليوس قيصر، واتفق الثلاثة، بومبيوس ويوليوس وكراسوس، على صيغة حكم ثلاثي. ولكن يوليوس قيصر كان يملك من القوة والطموح والنظر الثاقب ما جعله يجهز حملة على غاليا وجرمانيا سنة ٥٢ فاخضعهما واستطاع أن يفرض نفسه في روما، خاصة بعد موت كراسوس وبقاء بومبيوس قنصلاً وحيداً. فعاد يوليوس مع جيشه وهرب بومبيوس إلى اليونان فلاحقه وهزمه وأصبح الحكم بين يديه، واستطاع أن يحصر فيه جميع السلطات ونظر إليه الرومان نظرة تأليه، ولكنه اغتيل سنة ٤٤، وانتقلت السلطة إلى ثلاثة قواد هم: أوكتافيوس وأنطونيوس وليبيدوس. فاضطهدوا أتباع يوليوس وتقاسموا الحكم في ما بينهم. لكنهم تنازعوا عليه وجرت معركة بحرية في أكثيوم قرب الساحل اليوناني هزم فيها أنطونيوس وأصبح أوكتافيوس السيد المطلق فأعطاه مجلس الشيوخ لقب أوغسطس (العظيم) وسماه قائداً أعلى للقوات الرومانية وحاكماً للدولة. ومعه نشأت الامبراطورية، واستمرت الفتوحات في عهده حتى وصلت إلى موريتانيا في غرب أفريقيا.

لمحة عامة عن المجتمع الروماني

في البداية، كان المجتمع الروماني يتألّف من فئتين متساويتين طبقيّاً، هما الرعاة والمزارعون، لكن الأمر تبدّل مع نشوء الملكيات الكبرى وسيطرة نسبة قليلة من الملاكين على الأراضي الزراعيّة.

وفي عهد الجمهوريّة، ازداد الانقسام الطبقي وأصبحت الطبقات ثلاثاً: الأشراف والموالي وعامة الشعب.

«وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع شاقة تعسة. فإنه كان يحشر ليلاً في الثكنات حشراً ويساق نهاراً إلى الحقل سوقاً. وكان يكوى بمياسم ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار، فنفر الرقيق من صحبة سيده وانقبضت نفسه عن العمل له بإخلاص وأمانة. واضطر سيده أن يكلفه من العمل أنواعاً معينة، تلك التي لا تتطلب الكثير من الأمانة والإخلاص، فحمله على تربية المواشي ورعايتها. فتضاءلت على الأيام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب، وبار بعض الأراضي وترك لينبت فيه العشب فترعاه تلك المواشي، واعتمدت رومة على قمح مصر وحبوبها لتغذية أبنائها وأبناء المدن الإيطالية الأخرى، وحذرت تصدير هذه الحبوب إلى أي مكان آخر. وسئم المزارع الكولوني هذا النظام، فهجر الأرياف وازدحم في المدن، ولا سيما رومة، ونافس غيره من الفقراء فيها على نصيب يناله معهم من إحسان الدولة. وكانت رومة قد أخذت تقل حروبها منذ عهد أوغوسطس قيصر فيتناقص معها عدد الأسرى. وقلّت اليد العاملة. فبارت الأرض لهذا السبب أيضاً. وضعف الإنتاج الزراعي».

أسد رستم ـ الروم (الجزء الأول).

فالأشراف، أو النبلاء، كانوا أغنياء المجتمع وأصحاب الأراضي والمواشي.

والموالي هم الذين يعملون في خدمة الأشراف.

أما عامة الشعب فكان معظمهم من الفلاحين. وكانت فرصة الشراء متاحة لهم، وإذا استطاعوا ذلك ارتقوا إلى طبقة الأشراف.

ومع الوقت، ومع ازدياد الفتوحات الرومانيّة في الخارج، أضيفت طبقة أخرى في أسفل السلّم الطبقي، هي طبقة العبيد التي نمت مع الوقت وأصبح عدد أفرادها كبيراً. وتسبّبت الفتوحات العسكريّة أيضاً في تناقص عدد المزارعين الذين أصبحت أعداد كبيرة منهم في خدمة الجنديّة.

وبسبب الظلم والمعاملة القاسية التي عومل العبيد بهما في المجتمع الروماني، سعى هؤلاء مراراً إلى التمرّد والثورة، وأبرز ثوراتهم كانت بقيادة سبارتاكوس الذي استمرّت ثورته سنتين (٧٣ ـ ٧١ ق.م.) إلاّ أنه هزم في نهاية الأمر فازدادت قسوة قبضة الظلم والاستعباد على العبيد.

«... ومنح الامبراطور كركلاّ حقوق الرومان المدنية لجميع سكان المدن في جميع أنحاء الامبراطورية فأصبح كلهم مواطنين رومانيين منذ السنة ٢١٢ ب. م. ولكن هذا لم يعن التساوي بين جميع المواطنين. فبقي هنالك شرفاء ووضعاء: شيوخ وفرسان وجنود لا تنالهم شدة القانون في العقوبات وأكثرية ساحقة خاضعة لكل ما جاء في القانون من قساوة وشدة. وانتظم الشرفاء طبقات طبقات فجاء على رأسهم القناصل ثم البطاركة ثم المدبرون فأبناء الجنود والموظفين ثم الموظفون المستجدّون في الوظيفة...».

«وانتظم سائر أفراد الشعب طبقات وانحصروا فيها وأورثوها أبناءهم من بعدهم. وجاء في طليعة هذه الطبقات طبقة الكوريالس (Curiales) أصحاب الأملاك. واتسق التجار وأصحاب المهن والحرف نقابات مقفلة موروثة».

أسد رستم ـ الروم (الجزء الأول).

ولم تنج عامة الشعب من ظلم الأشراف واستغلالهم، فرزح المزارعون تحت وطأة الديون، ومن عجز منهم عن وفاء دينه كان يتعرّض للاستعباد، فأعلنوا العصيان المدني، وهدّدوا بالرحيل وترك الأرض تبور. فرضخ الأشراف وتخلّوا عمّا تدين به لهم عامة الشعب من أموال. وأنشأت العامة ما يمكن تسميته نقابة تضمّ عشرة ممثلين، تسهر على حقوق المزارعين وترفض كلّ ما يسيء إلى مصالحهم. وواصل المزارعون نضالهم حتى حصلوا على كامل حقوقهم الاجتماعيّة سنة ٤٤٥ ق.م. حين زالت الفروقات الطبقيّة بين الأشراف والعامة وأضحى التزاوج بين أفراد الطبقتين ممكناً.

وبعد حوالي ثلاثة قرون عادت طبقة الأثرياء إلى الظهور مجدّداً في المجتمع من خلال امتيازات خاصة منحوها لأنفسهم وسيطروا بواسطتها على أهم الوظائف في الدولة. فعاد النزاع بين المزارعين والأثرياء بعدما وضع هؤلاء أيديهم على أملاك الدولة التي يستفيد منها الفلاحون وتقاسموها في ما بينهم. وساءت الأحوال أكثر في عهد سيلّلا الذي عامل عامة الشعب بالقسوة والتنكيل ومصادرة الأملاك. ولن يتحسّن الوضع إلاّ في عهد يوليوس قيصر الذي أعطى حق المواطنية الرومانيّة لكلّ إنسان يتمتّع بحريّة تامّة. وانعكس هذا التحسّن على العبيد الذين حرّم القانون قتلهم، واستعاد العديد منهم حرّيته في مقابل أن يبقوا في خدمة أسيادهم.

وإن تكن الفوارق الطبقيّة قد زالت في المجتمع الروماني في تلك الفترة، فإن هذا المجتمع لم يخرج كلّياً من دوّامة الصراع الطبقي بين الأغنياء والفقراء، هذا الصراع الذي كان يطلّ بين مرحلة وأخرى ليعيد الشرخ إلى الحياتين الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

الفصل الثاني

لبنان في العهد الروماني

احتلال لبنان

في إطار توسّعهم العسكري، سيطر الرومان على الحوض الشرقي للمتوسّط بكامله، ودخلت جيوشهم لبنان سنة ٦٤ ق.م. بقيادة بومبيوس، وأصبح لبنان ضمن ما يسمّى بالإقليم السوري، بالإضافة إلى سوريا وفلسطين.

وقد أبدى الرومان اهتماماً خاصاً بالإقليم السوري لأنه يقع على حدود بلاد فارس التي كانت تنافسهم على حكم المنطقة. لذلك فضّلوا أن يكون حكمهم لها مباشراً، ومنحوا الحاكم الروماني الذي كان يختار من القناصل صلاحيات واسعة تتيح له إعلان الحرب وتطبيق التجنيد العسكري، إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وأبقى الرومان على مدينة أنطاكية كمركز للحاكم، كما كانت عند أسلافهم السلوقيّين الذين حكموا المنطقة قبلهم. والحاكم الأول الذي عُيّن على الإقليم السوري كان سكوروس الروماني، ثم توالى على الحكم كلّ من مارسيوس فيليبوس ولانثولاس مارسيلينوس وكابينوس وكراكوس، وقد واجه هذا الأخير هجمات الفرتيّين على ولايته واستطاع أن ينتصر عليهم بصعوبة. وخلف كراكوس بيبلوس سنة ٥٠ ق.م.

وبسبب الاهتمام الذي أبداه الرومان تجاه الإقليم السوري، وخصوصاً الجزء الساحلي منه، لم يعاملوا لبنان كما لو كان بلداً محتلاً، وإنما منحوه امتيازات خاصة تمتّعت بها المدن البحرية، مثل طرابلس وبيروت وأرواد وصيدا وصور. ولكن هذه الامتيازات لم تلحظ الشأن السياسي بحيث لم تؤدِّ هذه المدن أيّ دور مهمّ في هذا المجال. وفقد ملوك المدن الفينيقيّة صفتهم الملكيّة وأصبحوا إمّا ولاة وإما قضاة.

وازداد شأن المدن الفينيقيّة أهميّة في عهد يوليوس قيصر الذي زار المنطقة سنة ٤٧ ق.م. وبعد مقتله بفترة قصيرة، انقسمت الامبراطوريّة الرومانية إلى قسمين، ونال مارك أنطونيو القسم الشرقي منها، فألغى بعض امتيازات المدن، باستثناء مدينتي صيدا وصور. ونتيجة لعلاقته الغراميّة مع كليوباترا، ملكة مصر،

منحها سهل البقاع والساحل الممتدّ من النهر الكبير حتى حدود مصر، واستثنى من ذلك صيدا وصور اللتين حافظتا على استقلاليتهما.

«... وكان أكثر السوريين يفضلون حكم البربر على حكم الرومان فكان ذلك سبباً في إسراع المدن بالتسليم إلى البرثيين وأما تأخر أرواد عن الرجوع إلى الطاعة فكان خشية العقاب على تعذيبها رسول أنطوني فأحط الروماني عليها فثابرت على حصار طويل أملاً بعودة البرثيين إلى الغارة وفي سنة ٣٨ ق.م. تمت أمانيهم حيث ظهرت طلائع الأعداء عند التخوم وكان فانتدبوس قائد الرومان قد صرف معظم جيشهِ حتى لم يبقَ لهُ من يعتمد عليهِ في دفع الأعداء فعدل إلى الحيلة حيث جعل من يبلغ البربر إن جيش الرومان كثيف فبدا الحاملون يسيرون الهوينا بينما كان الرومان يتجهزون وبلغ البربر سيرهستيك فالتقوا بالقائد فانتدبوس وحاربوه وهم على وجل من كثرة قومهِ فغلبوا ثلاثة وفرّ منهم خلق كثير لجاؤا إلى كوماجن حيث أعلن أنطيوخس حاكمها أنهُ يحميهم فحمق الرومان وقصدوهُ فحصروهُ في ساموسات عاصمته حتى ضايقوهُ فعرض عليهم ألف وزنة نجدة لبلدتهِ وثمناً للصلح وكاد فانتيديوس يقبل بها لولا أمر أنطوني بالكف عن المخابرة لقدومهِ فجاءَ وتقلد إمارة الجيش وأقام على الحصار طويلاً فلم يخدمهُ سعد نائبهِ بل التزم أن يقبل الكف عن القتال بثلاثمائة وزنة فقط ثم رحل عن سوريا تاركاً إدارتها بعهدة سوسيوس ولم يرجع إليها إلا بعد سنتين فمر بالبلاد على عجل ليأتي فينيقية ويجتمع بملكة مصر وكان قد وهب كل البلاد السورية الواقعة بين مصر والنهر أيلوثيروس أي الكبير إلى كليوباطرة عدا عن صيدا وصور فإنهُ حفظهما لنفسهِ مع إن كليوباطرة كانت ترغب في ضمهما إليها وروى إن البلدتين حفظتا ما لأنطوني عليهما من الحقوق ولذلك حرمهما أغوسطس قيصر حقوقهما وامتيازاتهما إلا أن استرابو يقول: أنهما حافظتا على استقلالهما تماماً».

تاريخ سوريا ـ جرجي ينّي.

وفيما انشغل الرومان بصراعاتهم الداخليّة، هاجم الفرتيّون المنطقة وسيطروا عليها كلّها، ما عدا مدينة صور، إلاّ أن الرومان بقيادة مارك أنطونيو استعادوا بسرعة المناطق التي انتزعها الفرتيون من ملكهم.

الوضع السياسي والإدراي

لم يدخل الرومان لبنان كغزاة، ولم يتعاملوا معه كبلد محتل، وإنما منحوه امتيازات عديدة تعبّر عن احترامهم لشعبه وتقديرهم لدوره الحضاري، وتعلّقه بحريّته واستقلاله. لكن اتّساع بلادهم وتعدّد جنسيّات الشعوب المنضوية تحت لوائها، بالإضافة إلى خوفهم من الثورات والحركات الانفصالية في الولايات والأقاليم، كانت تفرض عليهم أن يطبّقوا الحكم المباشر على مستعمراتهم. وهذا ما تمّ تطبيقه في لبنان، فألغوا الملكيّة في المدن الفينيقيّة، وأصبح الملك يقوم مقام الوالي أو القاضي.

وفي بداية القرن الثاني ق.م. عمد الامبراطور سبتيموس سفيروس إلى تقسيم الإقليم السوري إلى ولايتين، سوريا الداخليّة وسوريا الفينيقيّة. والأخيرة عرفت توسّعاً مهمّاً في مساحتها الجغرافيّة امتدّ ليشمل مدينتي تدمر وحماه. وجعلت مدينة صور عاصمة لهذه الولاية ومركز مجلسها الاتحادي، ولم تلبث صور أن رفعت إلى مرتبة مستعمرة رومانيّة، وهذا يعني اعتبار أهلها رعايا رومان. وحصل على هذه الميزة أيضاً كلّ من صيدا وجبيل. وسبق لأغسطس أن منح الحقوق نفسها لمدينتي بيروت وبعلبك (هليوبوليس).

هذه الحقوق سمحت لأبناء المدن المذكورة بإعفائهم من ضرائب الخراج والجزية والمكوس، وسمحت لهم برفع دعاويهم إلى ديوان الامبراطور في روما.

وجعل سفيروس من مدينة صورة مقرّاً للكتيبة الثالثة في الجيش الروماني وسمّيت المدينة «صور العاصمة مستعمرة سبتيموس سفيروس».

وعندما تولّى إيلوجبال عرش الامبراطوريّة سنة ٢١٨، جرّد صور من امتيازاتها وألقابها ومنحها لمدينتي صيدون وحماه، إلاّ أن الوضع سيعود سريعاً إلى

حاله بعد مقتل إيلوجبال في روما.

عامل أغسطس قيصر لبنان باهتمام بالغ وعطف مميز، إلى درجة أنه أطلق اسم ابنته جوليا على مدينة بيروت بعد إعادة بنائها، ومنحها صفة السعادة، فأصبح اسمها «بيروت يوليا السعيدة». ومنح أهلها كامل حقوقهم المدنية والسياسيّة، وهو أمر لا يتوفّر سوى للرومان.

ونالت مدينة جبيل حظوة عند الامبراطور أدريان عندما زار لبنان، فأقام فيها مبدياً اهتمامه بالاحتفالات الدينيّة والشعبيّة التي كانت تقام في وادي نهر إبراهيم لمناسبة ذكرى الإله أدونيس والإلهة عشتروت.

وأدّى به ذلك إلى عبادة إلهة الحب والجمال ونقل عبادتها إلى روما حيث دعيت «فينوس».

ومع انتقال السلطة في المنطقة إلى الدولة البيزنطية، جرت بعض التعديلات على التقسيم الإداري للولايات والأقاليم، فقام الامبراطور ثيودوسيوس الثاني بفصل فينيقيا الشرقيّة، أو اللبنانية، عن فينيقيا البحريّة، فأصبحت مستقلّة عنها. وكانت فينيقيا اللبنانية تضمّ عدداً من المدن المهمّة، أبرزها بعلبك ودمشق وتدمر، وعاصمتها حمص. أما فينيقيا البحريّة فكانت عاصمتها صور، وضمّت مدناً مهمّة مثل صيدون وعكا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعرقة وأرواد.

الوضع العسكري

ذكرنا أن الإقليم السوري كان يقع على تخوم دولة فارس، عدوّة روما الأساسية في الشرق. لذلك، عمد الرومان إلى إقامة قواعد عسكريّة على أطراف بادية الشام لدرء خطر هجمات الفرس والبدو على سكان الإقليم. وتمّ تجهيز القواعد بحصون وقلاع ونقاط مراقبة على الحدود، وأخرى قرب مراكز المياه والينابيع والآبار لحمايتها باعتبارها عنصراً حيويّاً مهمّاً في حياة تلك المنطقة التي تفتقر بمعظمها إلى المياه، باستثناء لبنان.

وأثناء النزاع على السلطة بين بعض القادة في جيوش روما، شهد بعض المدن الفينيقيّة اضطرابات خارجة عن إرادة شعبها وسكانها. ففي سنة ١٩٣ حدث خلاف بين نيجر والي سوريا، وسبتيموس سفيروس والي بابونيا، فوقفت صور إلى جانب سفيروس وأزالت كلّ مل يشير إلى ولائها لنيجر، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن أرسل قوات عسكريّة للقضاء على صور، فدُمّرت المدينة وأحرقت بعدما نهبت وأزهقت أرواح العديد من أبنائها.

لكن سفيروس استطاع أخيراً الانتصار على نيجر سنة ١٩٤ فأعاد بناء صور.

الوضع الاجتماعي

بلغ عدد سكان الإقليم السوري بناء على الإحصاءات التي أمر أغسطس قيصر بإجرائها قبيل ميلاد المسيح، نحو سبعة ملايين نسمة، ممّا يدلّ على أن المنطقة كانت تشهد في تلك الفترة اكتظاظاً سكانياً، قد يكون سببه الرئيسي الأمن والاستقرار اللذين كانا يسودان على المنطقة.

وكان معظم سكان لبنان يعيشون في المدن الساحليّة حيث تتوافر موارد الرزق وسبل العيش. والبعض القليل منهم كان يعيش في الجبال القريبة من الشاطىء وعلى ارتفاع متوسّط بعيداً عن برد الشتاء وصقيعه وثلوجه.

وبسبب ازدياد السكان في المدن البحريّة، وخصوصاً في الصغيرة منها كصور وأرواد، عمد الناس إلى بناء عمارات ومساكن ذات طبقات متعدّدة لاختصار مساحة البناء أفقياً والاستفادة من العلو لزيادة عدد الوحدات السكنيّة، وكان بعض الأبنية يعلو إلى ارتفاع لا بأس به.

واعتمد سكان الجزيرة الصغيرة على مياه الآبار التي تملأها الأمطار لتأمين حاجتهم من الماء للاستعمالات كافة، وكانوا يحصلون أيضاً على الماء العذب من نبع بحري يقع قرب الجزيرة.

وفي تلك المرحلة، اعتاد الأغنياء من الفينيقيّين والرومان الخروج من المدن خلال الصيف والاصطياف في الأماكن المرتفعة حيث بنوا بيوتاً لهم. ولا تزال بقايا بعض هذه البيوت ظاهرة حتى اليوم في بعض القرى اللبنانيّة، وخصوصاً في إهدن وتنورين وقرطبا والعاقورة. ووجدت في هذه القرى أيضاً قبور ونواويس ونقوش بالإغريقية والرومانيّة محفورة على الصخور. ولكن هذه المناطق لم تعرف في البداية كثافة سكانية لأن السكن فيها، كما ذكرنا، اقتصر على الأغنياء دون غيرهم،

إلى جانب بعض الرعاة والمتنسكين الذين لم يكونوا يملكون بيوتاً، وإنما كانوا يبيتون في الكهوف والمغاور المنتشرة في المنطقة. إلاّ أنه بعد القرن السابع الميلادي، ستشهد المرتفعات الجبليّة تدفّق مجموعات مسيحيّة شكّلت لاحقاً الكنيسة المارونيّة.

اللغة

أحدث العهد الروماني في لبنان متغيّرات مختلفة على الصعد السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وغيرها. وكان من الطبيعي أن يطاول التغيير اللغة المكتوبة ثم المحكيّة.

وفي البداية، أخذ الفينيقيّون يسكّون النقود المعدنيّة مستبدلين أبجديّتهم بالكتابة الإغريقيّة التي كان الرومان يعتمدونها. ثم بدأت اللغة الفينيقيّة تختفي من الدوائر التابعة للدولة، وبعد ذلك من الشارع، وحلّت محلّها اللغة الآرامية. أما اللغة اللاتينية فقد انتشرت أيضاً في المجتمع الفينيقي، ولكنها لم تأخذ طابعاً شمولياً، بل اقتصر تعلّمها على المجنّدين وعلى موظفي الدولة.

وفي بعض المستعمرات الفينيقيّة في شمال أفريقيا، ظلّ التخاطب باللغة الفينيقيّة قائماً حتى القرن الحادي عشر للميلاد، وبالتحديد في إحدى بلدات خليج سرت الموجود حالياً في ليبيا.

المواصلات

بعد توسيع حدود الدولة والسيطرة على أجزاء مهمّة من قارات العالم القديم الثلاث، أوروبا وآسيا وأفريقيا، كان لا بدّ من ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف بشبكات مواصلات متطوّرة تسهّل عملية الاتصال بين جزء وآخر منها بأقصى ما يكون من السرعة، وبأفضل ما يكون من الأحوال الأمنيّة، فتمّ إنشاء شبكة طرقات حديثة لتسهيل انتقال العسكر الروماني من ولاية إلى أخرى لإخماد ثورة ما أو لجباية الضرائب.

وهذه الشبكة من الطرقات كان لها فضل كبير على الازدهار الاقتصادي، وخصوصاً في مجال التجارة، حيث مع توفّر الأمن، أصبح من السهل نقل البضائع والسّلع من مكان إلى آخر بأقصر وقت وأقلّ كلفة. فالطرقات كانت مجهّزة بلافتات تشير إلى وجهة الطريق وإلى المسافة التي يحتاجها المسافر للوصول إلى المكان الذي يقصده.

واهتمّ الرومان ببناء الجسور لتقصير المسافات بين المناطق، وسهروا على العناية بالمرافىء البحريّة. ومنذ عهد أغسطس قيصر، نشأ نظام للبريد يربط روما وولاة الأقاليم لتسهيل الاطلاع على مجريات الأوضاع بمختلف وجوهها وتوجيه التعليمات والأوامر اللازمة لإدارة شؤون هذه الأقاليم. وأمّنوا سلامة القوافل بعدما قضوا على قطّاع الطرق في البرّ، والقراصنة في البحر بواسطة سفن بناها لهم الفينيقيّون من خشب الأرز. ولم يكن ذلك سهلاً، فقد استطاع بعض قطّاع الطرق الذين تكتّلوا في جماعات كبيرة اتّخذت من عنجر مقرّاً لها أن يقلقوا الأمن الروماني حتى مطلع القرن الثاني للميلاد.

الوضع الاقتصادي

انعكس «السلم الروماني» إيجاباً على الوضع الاقتصادي في لبنان بشكل عام. والفضل الكبير في ذلك يعود إلى أباطرة كبار حكموا روما في بداية عزّها، وبنيت بإدارتهم وتوجيهاتهم إحدى أكبر الامبراطوريّات في تاريخ البشريّة.

وشهدت فينيقيا حركة اقتصادية مزدهرة، زاد في اندفاعها انصراف المدن الفينيقيّة عن السياسة والشؤون الأمنيّة التي تولّى الرومان أمرها، وقد أكّد الفينيقيّون مرّة أخرى فعاليّتهم في المجال الاقتصادي وقدرتهم على التفوّق على جميع منافسيهم في هذا المجال. وأصبحت مدنهم ومرافئهم من أكثر النقاط نشاطاً في كلّ أنحاء الامبراطوريّة، فازدهرت تجارتهم التي كانت تعتمد على عنصرين: النتاج الزراعي والنتاج الصناعي.

فعلى الصعيد الزراعي، ازدهرت زراعة الكرمة والزيتون والقنّب الذي يدخل في صناعة النسيج، ولا سيما الكتان الذي اشتهرت به بيروت. وشكّلت الغابات التي كانت تغطّي مساحات واسعة من البلاد عنصراً مهمّاً قطع الحطب للوقود وصناعة السفن والبيوت وكلّ ما يدخل الخشب في صناعته. والانتاج الزراعي في معظمه كان يصدّر إلى الخارج بعد تصنيعه. فإنتاج الكرمة كان يباع خمراً وزبيباً. وهذان النتاجان اشتهرا بجودة عالية تغنّى بها الرومان. وكان الزيت يعصر ويباع زيتاً فاخراً، والقمح كان يطحن ويباع طحيناً لصناعة الخبز.

ولم يكتفِ الفينيقيّون بإنتاج أراضيهم، بل كانوا يستوردون الجلود والتمور من المناطق الصحراويّة ثم يصدّرونها إلى الخارج.

وعلى الصعيد الصناعي، ازدهر العمل المنجمي في لبنان لغناه بمعادن مختلفة. وكان بعض الأباطرة يرسلون المحكومين عليهم بالأشغال الشاقة إلى

العمل في مناجم لبنان. وازداد الإقبال على المعادن لتأمين حاجيات مختلف الصناعات، فكان النحاس يستخرج من مناطق في صيدا، والحديد من المناطق القريبة من بيروت. وكان هذان المعدنان يستخدمان في صناعة الأواني المنزليّة والسفن والأسلحة إلى جانب الصناعات الغنيّة التي كانت تدخل فيها المعادن الثمينة، كالذهب والفضة. وبسبب ارتفاع مستوى المعيشة في المدن الفينيقيّة، وخصوصاً في بيروت وصيدا وصور، ازداد اقتناء الناس الحلى المصنوعة ببراعة ومهارة وذوق فنّي رفيع، والمطعمة بالأحجار الكريمة. وعرفت هذه الصناعة لجودتها إقبالاً جعل من نتاجها يباع في مختلف أنحاء الامبراطورية الرومانيّة.

وصنع الفينيقيّون أيضاً الأدوية والعقاقير المختلفة والمراهم والعطور وصدّروها إلى الخارج، وكانوا يستوردون الحرير من الصين لسدّ حاجيات الأسواق لأن الإنتاج المحليّ من الحرير لم يكن كافياً، لا سيّما بعدما انتشر ارتداء الألبسة الحريريّة في أوساط الأثرياء. وجاؤوا بالسكّر والأرز من الهند، والبهارات واللؤلؤ من المناطق العربيّة المجاورة.

وإزاء ازدياد الإنتاج الصناعي وتزايد الإقبال عليه، كان لا بدّ للفينيقيّين من فتح مكاتب تجاريّة لهم لتسهيل عمليات التصدير وصفقات البيع والشراء، لأن الفينيقيّين كانوا يمارسون أيضاً تجارة الترانزيت وتجارة إعادة التصدير، فيستوردون سلعاً معيّنة من دول معيّنة ثم يعيدون بيعها إلى دول أخرى محققين أرباحاً مهمّة. كما كانوا يستوردون المواد الخام التي تفتقر إليها بلادهم ويصنعونها ثم يبيعونها إلى الخارج. وقد أدار المكاتب التجاريّة تجار فينيقيّون عرفوا بـ «الوكلاء السوريّين». وأكثر المكاتب كان في المدن الأوروبيّة المهمّة، خصوصاً وأن الفينيقيّين ركّزوا تجارتهم على السوق الأوروبيّة حيث كان الطلب متزايداً على البضاعة الفينيقيّة، وحيث مستوى المعيشة مرتفع.

وارتفاع مستوى المعيشة في أوروبا، وفي روما خصوصاً، دفع بالمئات من الفينيقيّين إلى السفر إليها، من ممارسي التجارة والعديد من المهن الأخرى، للعمل فيها بهدف الكسب السريع والوفير. وانتشر هؤلاء في العديد من المدن الأوروبيّة

التابعة للامبراطوريّة. وركّز التجار سكنهم وعملهم في المرافىء. وأبرز المدن التي استوطنوها بوتيولي (بوتزيولي حالياً) حيث نشأت جالية صوريّة كبيرة غنيّة أغرقت المدينة بالمنتجات الصورية والفينيقيّة. وقد وجدت في المدينة كتابات للفينيقيّين تعود إلى عهد الامبراطور تراجان.

كذلك سكنت جالية صوريّة أخرى في روما، وقد عثر في المدينة على كتابة أخرى هي عبارة عن كلمات تعبّد للإله هدد الفينيقي. وهذه الكتابات بعضها باللاتينيّة وبعضها الآخر بالإغريقيّة.

ووجدت آثار وكتابات أخرى تدل على وجود جاليات فينيقيّة في نابولي وفي بعض مدن الإغريق والمقدونيّين البحريّة والجزر اليونانيّة التي كانت تشكّل جزءاً من الامبراطوريّة.

ولم تكتف الجاليات الفينيقيّة بالانتشار في الموانىء، بل وسّعت وجودها ليشمل العديد من المدن الداخليّه، حيث مارست التجارة البريّة، فحلّت الجاليات في البندقية وتريستا وأكيليا (إيطاليا)، وفي مسّينا (صقليّة)، وفي قرطبة (إسبانيا)، وفي ليون وباريس وبوردو (بلاد الغال أو فرنسا حاليّاً)، وفي توف (لوكسمبورغ)، وفي كولونيا (ألمانيا)، وفي بعض مدن روسيّا الجنوبيّة.

ولم تقف الجاليات هذه عند حدّ بيع الإنتاج الوطني المصدّر من فينيقيا، بل كانت أيضاً تشتري البضاعة التي تنتج حيث تقيم ثمّ تصدّرها إلى الوطن الأم، أو إلى مناطق أخرى من العالم.

* * *

هذا الازدهار الاقتصادي استفاد منه معظم المدن الفينيقيّة، وخصوصاً كلّ من صيدا وصور وبيروت.

فالأولى حافظت على صناعة الزجاج للاستعمالات المختلفة، ونشطت فيها صناعة النسيج، كالكتان والصوف، وكانت تصدّر منتجاتها إلى الخارج، بالإضافة إلى الرخام الأبيض الذي انتشرت مقالعه بين صيدا وصور.

ونعمت صور بفوائد عديدة نتجت عن «السلم الروماني»، وكانت تحظى بعطف من قبل العديد من الأباطرة، حتى أنه أطلق عليها اسم «كلاوديا بولس» تيمّناً بالامبراطور كلاوديوس (٤١ - ٥٤م) الذي كان معجباً بالمدينة وبشعبها. كما استفادت صور تجارياً من الطريق التي شقّها نيرون بين مصر وأنطاكية، مروراً بصور.

وفي عهد الامبراطور فسبسيان (٦٩ - ٧٩م) أصبحت صور مركزاً لسكّ النقود التي كانت تتداول في كافة المناطق التابعة للإقليم السوري، وكانت النقود الصوريّة تحمل أحياناً على أحد وجهيها صورة الامبراطور، وعلى الوجه الآخر صورة للإله ملكارت أو رمزاً له، كما في عهد الامبراطور تراجان.

أما أبرز ما كانت تنتجه فكان الصباغ الأرجواني الذي ذاعت شهرته في أرجاء الامبراطورية، وكانت الأقمشة الأرجوانية تباع بأسعار مرتفعة، كما في الأزمان السابقة، ممّا حدا بالسلطة الرومانية إلى الاشراف مباشرة على هذه الصناعة.

كذلك، صدّرت صور الرخام الأبيض من مقالعها، واشتهرت بخمورها الجيّدة. كما واصلت صناعة السفن التجارية والحربيّة وسفن الصيد.

وفي أواخر القرن الرابع الميلادي، قدم إلى صور القديس هيرونيموس حيث وجد المدينة تنعم بازدهار اقتصادي، وأشاد بالحركة التجاريّة الدائمة في مرفئها، وأطلق على المدينة تسمية «سوق الجزر الكثيرة».

وفي بداية القرن السادس، ضربت صور هزّة أرضيّة قويّة تركت بصماتها خراباً ودماراً. إلاّ أن المدينة استعادت عافيتها الاقتصاديّة بسرعة، وذلك بفضل غناها الماديّ وإرادة بنيها. ويذكر بعض المراجع التاريخيّة أن صور عرفت خلال فترة الرخاء الاقتصادي حياة مليئة بالخلاعة والترف والمجون، إلى جانب نشاط اقتصادي بارز تمثّل بصناعة المنسوجات من مختلف الأنواع.

أما مدينة بيروت فقد ساعدها موقعها على الشاطىء الشرقي للمتوسّط على لعب دور اقتصادي مهمّ في مختلف العهود التي شهدها لبنان، لا سيّما في العهد

الروماني.

فالرومان عرفوا أهميّة هذه المدينة بعد دخولهم إليها، ففتحوا الطرق التي تربطها بمدن أخرى على الساحل وفي الداخل. وجرّوا إليها المياه من الجبال المجاورة، فاكتملت فيها كلّ متطلّبات العيش المعروفة في ذلك الزمان.

في المجال الصناعي، اشتهرت بيروت بمنسوجاتها المختلفة المصنوعة من الصوف أو الكتّان أو الحرير، وكانت تباع في معظم أسواق الامبراطورية الرومانيّة، حتى قيل إن بيروت أصبحت مركزاً للاتجار بالحرير، وكانت المنسوجات تصبغ باللون الأرجواني وبألوان أخرى، وتباع بأسعار مرتفعة.

وللانتاج الزراعي دور مهمّ في الصناعة البيروتيّة، فقد انتشرت فيها المعاصر لعصر الزيتون المقطوف من أراضيها وإنتاج الزيت الفاخر، وكانت كروم العنب منها تدخل في صناعة النبيذ المميّز Berytia Vina.

وفي المجال الزراعي، وبالإضافة إلى الكرمة والزيتون، انتشرت في بيروت زراعة البقول والنخيل والفاكهة المختلفة. ووفرة إنتاجها الزراعي دفعت بالرومان إلى جرّ المياه الصافية إليها لريّ الأراضي وإيصال مياه الشفة للسكان. وقد جُرّت المياه في عدد من الينابيع القريبة. ولا تزال آثار الأقنية التي جرّت المياه من نبع العرعار قرب بعبدات في المتن الشمالي، باقية حتى اليوم في بلدة الرّويسة وقرب بلدتي برمانا وبيت مري. وقد ورد تأكيد لوجود هذه القناة في كتاب «تاريخ بيروت» للكاتب صالح بن يحيى، حيث قال عن القناة إنها «كانت تجري من مكان يُسمّى العرعار من أرض كسروان قيد اثني عشر ميلاً».

وبيروت كانت مساحات منها مكسّوة بغابات الصنوبر. فكانت تقطع أشجارها بشكل مستمرّ لبناء السفن حتى تناقصت ثروتها الغابيّة شيئاً فشيئاً.

وازدهرت بيروت كمركز للنشاط التجاري في المنطقة، فكان التجار يقصدونها من كلّ أنحاء المنطقة لشراء منتجاتها المتنوّعة وبيعها في الأسواق الخارجيّة، ونشطت تجارة المعادن، لا سيّما الحديد والنحاس؛ فكانا يستخرجان

من أراضي لبنان. وقد أطلق المصريّون القدامى على الحديد تسمية «با ان بَرت»، أي «معدن بيروت». وفي هذا المجال، يقول الرحالة العربي ابن بطوطة الذي أتى لبنان بعد الفتح العربي أن مدينة بيروت «هي صغيرة حسنة الأسواق... وتُجلب منها إلى الديار المصريّة الفواكه والحديد».

وكون بيروت مدينة بحريّة جعل سكانها يهتمّون بصيد الأسماك والأصداف البحريّة، وهي مهنة كان يمارسها الفينيقيّون على طول الشاطىء، باعتبارها مصدر رزق مهمّ.

الأوضاع الفكريّة

عرف لبنان خلال العهد الروماني ازدهاراً ملحوظاً في مختلف المجالات الفكريّة. وبرز بين أبنائه عدد لا بأس به من الأشخاص الذين تركوا بصمات لهم واضحة في حقلي العلم والأدب لم يقوَ الزمان على محوها. والوجه الأبرز للنشاط الفكري في البلاد تمثّل بالمؤلفات التي كانت تصدر، وتتناول العلوم على اختلافها والأدب والفلسفة، وبالمدارس الجديدة التي تمّ إنشاؤها، وكان أبرزها على الإطلاق مدرسة الحقوق في بيروت.

في العلوم

اعتبر المؤرّخ سترابو في ما ذكره عن فينيقيا في العهد الروماني، أن أبناء صيدون كانوا «فلاسفة في الفلك والحساب». ولم يقلّ الصوريون شأناً عنهم في هذا المجال. ومن الذين برعوا في علم الفلك والجغرافيا مارينوس الصوري الذي سيأتي الحديث عنه مفصّلاً في الجزء الرابع من هذه المجموعة.

وحافظ الفينيقيّون في تلك المرحلة على شهرتهم وبراعتهم في هندسة البناء، وكان هيكل بعلبك «المعجزة» الأبرز التي شهدتها فينيقيا خلال تلك المرحلة من تاريخها. وهناك الكثيرون من علماء الآثار والمنقبون يعتقدون أن هندسة الهيكل كانت من ابتكار فينيقي، وأن بناءه تمّ بأيدي الفينيقيّين أيضاً.

في الأدب والفلسفة

عرفت المدن الفينيقيّة العديد من الأدباء والشعراء الذين جاءت على ذكر بعضهم القليل مراجع تاريخيّة عديدة.

ففي الأدب القصصي الميثولوجي، برز اسم فيلو الجبيلي (٦٤ ـ ١٦١ م). وقد عالج في قصصه موضوع خلق العالم وتاريخ الدين الفينيقي الذي استند فيه على أديان العالم القديم، كالديانتين المصريّة والبابليّة. كما اعتمد في هذا الموضوع أيضاً على كاتب فينيقي سبقه في الزمن هو سنكن ياتون Sanchuniaton. وهذا الكاتب عاش في القرن السادس ق.م. ولا نعلم عنه الشيء الكثير.

وبرز الفينيقيّون في تلك الفترة أيضاً بالخطابة وإلقاء المحاضرات الجوّالة التي كانت تتناول مواضع فلسفيّة مختلفة. ومن أبرز الخطباء الفينيقيّين في العهد الروماني رجل صوري يُدعى مكسيموس، وكان يلقي محاضراته التي اتّسمت بالبلاغة التي طغت على المضمون بين روما وأثينا. وهناك أيضاً ليبانوس من أنطاكية، وكان سوريّاً من أصل فينيقي. ومحاضراته كانت تدلّ على تعلّقه الشديد بالحضارة الهلينيّة.

ومن خطباء صور السفسطائيين كان هناك أيضاً أدريانوس الذي كان يعلّم البلاغة في كلّ من روما وأثينا.

وفي مجال الفلسفة، ظهر في فينيقيا رجال كبار فاقوا أدباءها وشعراءها وخطباءها في العطاء والأهميّة. وأشهر هؤلاء هو فرفوريوس الصوري الذي وُلد في صور سنة ٢٣٣ م وتوفّي في روما سنة ٣٠٥. اسمه الأصلي هو ملكوس، لكنه اتّخذ اسمه الآخر، والذي يعني مرتدي الأرجوان، تعبيراً عن محبّته لبلاده ومسقط رأسه صور. أقام في روما واهتمّ بفلسفة أفلوطين وسلك نهجه في بعض ما وضعه من كتب، وجمع مقالات أستاذه في مجموعات سمّاها «التاسوعيّات». ألّف نحو ٧٧ كتاباً تناولت الفلسفة والبلاغة والحساب والموسيقى والهندسة، وهاجم أيضاً المسيحيّة في بعض كتبه جاعلاً من المسيحيّين أعداء له ومتمسّكاً بوثنيّته.

ومن بين تلاميذ فرفوريوس برز الفيلسوف يمبليخوس (٢٥٠ ـ ٣٢٥ م) الذي ولد في عنجر وأسّس مدرسة للفلسفة في بلدة تقع على ضفاف نهر العاصي. وقد اهتمّ في فلسفته بالنواحي اللاهوتيّة، واختلف مع معلّمه في بعض النواحي المتعلّقة

بقدرة الحيوان على الإدراك.

يُذكر أن معظم المفكّرين الفينيقيّين استخدموا في كتاباتهم وخطبهم اللغة اللاتينيّة، فيما استخدمت قلّة منهم اللغة الآراميّة، لغة السيّد المسيح، والتي انتشرت لاحقاً في سوريا ولبنان بعدما اعتنق الفينيقيّون الدين المسيحي.

بيروت أمّ الشرائع

أبدى الرومان اهتماماً خاصاً ببيروت منذ عهد أغسطس قيصر الذي منحها اسم ابنته. وكانوا قد أنشأوا في روما مدرسة تعنى بتدريس مادّة الحقوق. وهذه المادّة ازدادت أهميّتها لدى الرومان بعد الفتوحات الكبيرة التي قاموا بها واتّساع رقعة امبراطوريّتهم إلى مناطق بعيدة عن السلطة المركزيّة في روما. فكان لا بدّ من سنّ شرائع تتناسب وحكم الشعوب المختلفة التي انضوت تحت جناحي النسر الروماني، من غرب أوروبا حتى الشرق الأدنى.

وكان الرومان قد وضعوا قانوناً مدوّناً على اثنتي عشرة لوحة في عهد الجمهوريّة، وعاشت الدولة في ظلّه. وبعد توسّع روما والتغيّرات التي طرأت على الوضعين الاجتماعي والسياسي، فرض على الرومان وضع قوانين جديدة لمراعاة الأوضاع الجديدة ولإزالة الظلم الذي لحق بعامة الشعب بسبب القانون القديم، إنطلاقاً من المبدأ الذي أطلقه الأمبراطور تراجان والذي يقول: «أن يفلت مذنب أفضل من أن يعاقب بريء». وتمّ تكليف عدد من العلماء في مجال الحقوق جمع القوانين المتعدّدة في قانون موحّد. وأنجح عمل في هذا المجال تمّ في عهد الامبراطور يوستنيانوس، فعرف القانون الجديد باسمه وأُطلق عليه لاحقاً اسم «القانون الروماني». ولم يخضع هذا القانون لأيّ تعديل إلاّ بعد أن نشأت المسيحيّة وأصبحت دين الدولة الرسمي.

واهتمام الرومان بالقوانين والشرائع أوجب عليهم فتح مدارس لتعليم مادّة الحقوق، فبنيت مدرسة أولى مهمّة في روما، ومدرسة ثانية لا تقلّ أهميّة عنها في بيروت. وهذا ما جعل من المدينة الفينيقيّة أهمّ مركز ثقافي في شرق الامبراطوريّة.

ويعتقد أن هذه المدرسة بنيت في عهد الامبراطور سبتيموس سفيروس في بداية القرن الثالث الميلادي.

جمعت مدرسة بيروت عدداً كبيراً من الطلاّب الذين جاؤوا إليها من مختلف المناطق المجاورة، وحتى البعيدة، ليدرسوا الحقوق التي تخوّلهم العمل في دوائر الدولة. ولم تلبث أن توسّعت شيئاً فشيئاً مع ازدياد عدد الطلبة، بعدما كانت غرفة صغيرة بالقرب من كاتدرائيّة مار جرجس المارونية التي لا تزال قائمة إلى اليوم بالقرب من ساحة الشهداء. ثم أصبحت أهمّ مدرسة للحقوق في الامبراطوريّة بفضل الرجال الكبار الذين تخرّجوا منها، ففاقت بشهرتها مدارس أثينا والاسكندريّة، وحتى روما. وغدت بذلك أبرز مرجع قانوني في الامبراطوريّة جمعاء. فلا غرو أن تلقّب بيروت بـ «أم الشرائع ومرضعتها»، وهذا اللقب منحه الأمبراطور يوستنيانوس.

ومن الأساتذة الكبار الذين درسوا في مدرسة بيروت هناك إميليوس وغايوس وبابينيانوس وأولبيانوس وأنطوليوس، وآخرون غيرهم. وبعض هؤلاء شارك في وضع القوانين الجديدة للدولة في عهد الامبراطور هادريان. كما وضع معظمهم مؤلّفات مهمّة في مجال الحقوق، لا تزال حتى اليوم تعتبر مراجع في القانون. وأبرز هؤلاء بابينيانوس وأولبيانوس.

بابينيانوس

ولد في حمص وقُتل على يد الامبراطور كركلاّ سنة ٢١٢. استدعاه الأمبراطور سفيروس إلى روما وجعله مستشاره القانوني. وأثناء حملته العسكريّة على بريطانيا توفي الأمبراطور (٢١١ م) بعدما أوصى مستشاره بتربية ولديه كركلاّ وجيتا. وكان سفيروس يعرف أن ولده الأول شرس الطباع ولا يكنّ مودّة لأخيه الأصغر، على رغم كلّ المحاولات التي بذلها لتحقيق ذلك، كإنشائه عيداً خاصاً للأخوين سُمّي «فيلادلفيا».

وعندما تسلّم كركلاّ العرش سنة ٢١١، طرد بابينيانوس من خدمته، لكي

يوفّر على نفسه انتقاداته وتوجيهاته. ولكي يتخلّص من أخيه ويصبح مطلق اليد في السلطة، دعاه إلى غرفة والدتهما. وهناك انقضّ عليه وقتله بين ذراعي أمّه بعدما التجأ جيتا إليها.

لم تخفَ هذه الجريمة على الشعب الذي غضب لمقتل جيتا، فالتجأ كركلاّ إلى بابينيانوس لينقذه من هذه الورطة من خلال مخرج قانوني يبرّر ما حصل. فرفض بابينيانوس الرضوخ لمشيئة كركلاّ، فغضب هذا وأمر بقطع رأسه.

كان بابينيانوس أهمّ من عمل في حقل التشريع في زمن روما. فعندما وضع قانون يوستنيانوس سنة ٥٣٣، ضمّ هذا القانون نحو السدس مادّة من المواد التي اشترعها بابينيانوس في حياته. وروح هذا الأستاذ الكبير لا تزال ماثلة حتى اليوم في العديد من القوانين المعتمدة في دول أوروبا وأنحاء أخرى من العالم.

أولبيانوس

هو من مواليد صور سنة ١٧٠ م، وكان من أبرز تلاميذ بابينيانوس، ثم أصبح مثله أستاذاً لمادّة الحقوق التي نبغ فيها في مدرسة بيروت. عاون أستاذه في مجلس القضاء الأعلى، ثمّ عيّنه الأمبراطور إسكندر سفيروس قاضي القضاة ومستشاره الخاص. ومن مركزه هذا، وبدعم من الأمبراطور، استطاع أولبيانوس تعديل عدد من القوانين وتحقيق إصلاحات أساسيّة في القانون الروماني ككلّ. وعندما حاول الحدّ من صلاحيّات الحرس الامبراطوري، قوبل بنقمة عارمة من قبل هؤلاء. وقد هاجم عدد منهم القصر ودخلوه بالقوّة، بعدما لجأ أولبيانوس إلى الامبراطور طلباً للحماية. لكن هذا لم يستطع ردّ المهاجمين عنه، فسقط صريعاً تحت ضرباتهم وتحت أنظار الأمبراطور العاجز عن التدخّل. وكان ذلك سنة ٢٢٨.

ترك أولبيانوس أكثر من مئتين وخمسين مؤلّفاً في مجال الحقوق والتشريع. وقد استفاد المشترعون من نحو ٢٥٠٠ فقرة من هذه المؤلّفات ليشكّلوا القانون الروماني في عهد يوستنيانوس.

* * *

حافظت مدرسة الحقوق في بيروت على مستوى مرتفع لطلاّبها، بحيث أنها كانت تفرض على كلّ تلميذ يريد الانضمام إليها، أن يتلقّى دروساً في علم اللغة، وأن يتقن الإغريقيّة واللاتينيّة. وكانت الدروس تعطى على مدى خمسة أيام، وتكون هناك عطلة أسبوعيّة يومي السبت والأحد. وقد ضمّت المدرسة طلاّباً كانوا يأتون من مختلف المدن الفينيقيّة، ومن أنطاكيا وآسيا الصغرى وإيدسا والإسكندريّة وغزّة، وغيرها.

وبعد نحو ثلاثة قرون من إنشائها، تحوّلت مدرسة بيروت جامعة كبيرة ضمّت إلى جانب الحقوق، معهداً للآداب وآخر للفلسفة. وقد تخرّج منها عدد مهمّ من التلامذة النوابغ، أمثال الأسقف القديس غريغوريوس العجائبي، والبطريرك القديس غريغوريوس النازيانسي، وزكريّا أسقف ميتيلين، وسفيروس بطريرك أنطاكية اليعقوبي، وغيرهم.

وبلغت مدرسة بيروت منزلة عالية عند القياصرة والمثقفين، وقد منحها أباطرة روما امتيازاً فخرياً بأن جعلوا منها مدرسة الدولة، وهو مركز لم تبلغه حتى مدرسة روما وسُمّي أساتذة المدرسة بالأساتذة المسكونيّين.

وفي العام ٥٥١ تعرّضت بيروت لزلزال عنيف دمر معظم أنحاء المدينة، بما فيها مدرسة الحقوق. وقتل في المدينة نحو ثلاثين ألف شخص، ومن بقي حيّاً فرّ هارباً إلى مناطق أخرى، كصيدا التي التجأ إليها الناجون من أساتذة المدرسة الذين راحوا يعطون دروساً في تلك المدينة ريثما يعاد بناء مدينة بيروت. لكن حريقاً هائلاً شبّ في المدينة فقضى على كلّ أمل في إعادة مدرسة الحقوق إلى الحياة مرّة أخرى.

الفصل الثالث

روما من الوثنيّة
إلى المسيحيّة

روما الوثنيّة

كان الرومان كمعظم شعوب العالم القديم وثنييّن، وكانوا مثلها متعدّدي الآلهة، حيث جعلوا لكلّ حاجة أو مظهر من حاجات الحياة أو مظاهرها إلهاً خاصّاً. وكانت لكهنتهم منزلة خاصة، فهؤلاء كانوا يمارسون العرافة وكانوا يقدّمون النصح لقوّاد الجيش قبل خوض أيّ معركة. وهؤلاء القوّاد لم يكونوا يجرؤون على المجازفة في أيّ حرب دون استشارة الكهنة.

أما إلههم الأكبر فكان «جانوس»، وهو إله النور والسلام وحارس منازلهم من الشرور. وكان الكهنة والكاهنات يخدمون الآلهة في الهياكل، واختصّت الكاهنات بالسهر على إبقاء الشعلة المقدّسة دائمة الاشتعال أمام مذابح الآلهة.

ولكي يتمكّن المواطنون من ممارسة عباداتهم في شكل يومي، أقاموا المذابح في منازلهم، ومارسوا شعائرهم الدينيّة بمثل ما كانت تمارس في الهياكل.

وفي فترة لاحقة، واجهت الديانة الرومانيّة تطوّراً تمثّل في التقارب الذي حصل مع ديانة الإغريق، بعد التوسّع العسكري الذي حقّقه الرومان وشمل بلاد اليونان، بالإضافة إلى تأثير الإغريق الذين كانوا يقطنون أصلاً في إيطاليا والذين بنوا الهياكل في إيطاليا على غرار تلك التي بناها الإغريق في بلادهم. ولم يلبث الرومان أن أدخلوا «تعديلات» على آلهتهم، فأصبحت تتخذ أشكالاً بشريّة، ذكريّة وأنثويّة، تماماً كما كانت آلهة اليونان. ولم يتورّعوا عن «اقتباس» هذه الآلهة وضمّها إلى ديانتهم بعد تغيير أسمائها. وهكذا، حلّ إله السماء وملك الآلهة جوبيتر الروماني محلّ زوس اليوناني، ومارس إله الحرب محلّ آريس، وجونون زوجة ملك الآلهة محلّ هيرا، ومينرفا إلهة الحكمة محلّ أثينا، وفينوس إلهة الحب محلّ أفروديت. ونيبتون إله البحر محلّ بوسيدون، وديانا إلهة الصّيد محلّ أرتيميس...

ولم يكتفِ الرومان بـ «سرقة» آلهة الإغريق، بل عمدوا إلى تبنّي مبادىء ديانتهم واعتمادها وكأنهم هم الذين أوجدوها. وبنوا هياكلهم على غرار المعابد الإغريقيّة، أما الكهنة فكانوا يتوزعون على المعابد، وكان على رأسهم الكاهن الأكبر. وأما الكاهنات فكنّ يقمن في أماكن خاصة ويتناوبن على السهر على الشعلة المقدّسة، فإذا انطفأت واجهت الكاهنة مصيراً محتوماً، وهو وأدها حيّة.

وكان مجلس الشيوخ الروماني يتولّى مراقبة الأمور الدينيّة، بما فيها الاحتفالات الدينيّة التي كان الشعب يواظب على حضورها إرضاء للآلهة. وكانوا يلجأون إلى طقوس دينيّة خاصة إذا كان هناك خطر ما يداهمهم.

وفي مرحلة لاحقة، وفي عهد الأمبراطوريّة، صار الرومان يؤلّهون قياصرتهم، بدءاً من يوليوس قيصر. ثم منح القيصر أوكتافيوس لقب أوغسطس، وهو عادة لقب يُعطى للآلهة دون سواها. ومعه أصبح هناك ما يُسمّى عبادة القيصر. ويبدو أن هذه المسألة قد أخذت طريقها سريعاً إلى الابتذال، فصار حكّام بعض الولايات الرومانيّة يعتبرون آلهة وهم أحياء. أما قيصر روما فكان يؤلّه بعد موته.

آلهة دخيلة

بعد سيطرة الرومان على شمال أفريقيا والشرق ووصولهم إلى حدود فارس، تعرّفوا إلى آلهة عديدة كانت تعبدها الشعوب التي سيطروا عليها، فأخذوا عن المصريّين عبادة الإلهة إيزيس ونقلوها إلى روما، كما أخذوا عن الفرس عبادة إلههم ميترا.

وإلى جانب الآلهة الجديدة، اقتبس الرومان عن الشعوب التي غزوها بعض عاداتهم الدينيّة والطقوس التي كانوا يمارسونها في احتفالاتهم، ولا سيّما الطقوس الشرقيّة.

* * *

في أيّ حال، لم يدم الرومان على تعبّدهم لآلهتهم، فانتهى بهم الأمر إلى التخلّي عنها والهزء بها، وسادت الفوضى الدينيّة في أرجاء البلاد، فيما كان العالم يتهيأ، على غير معرفة منه، لاستقبال ديانة سماويّة موحّدة جديدة ستغيّر وجه العالم، ووجه روما بشكل خاص، لا بالسيف والحرب ولكن بالصليب والمحبّة.

نشأة المسيحيّة

بعد نحو ستين عاماً على قدوم الرومان إلى الشرق وسيطرتهم على لبنان وسوريا وفلسطين، كان العالم يستعدّ، من غير معرفة منه، لاستقبال حدث عظيم لم تعرف البشريّة مثيلاً له. فحوالي السنة السادسة ق.م. ولد طفل صغير في مذود حقير في بلدة صغيرة تدعى بيت لحم، وهي من أعمال اليهوديّة في فلسطين. وبذلك تمّ الحدث الذي طالما انتظره اليهود ووُعدوا به عبر أنبيائهم، وهو مجيء المسيح ليحقّق الخلاص لبني إسرائيل.

وعندما بلغ السيّد المسيح الثلاثين، بدأ بالتبشير برسالته التي تدعو البشر إلى المحبّة وترتكز على غفران الخطايا للوصول إلى الملكوت السماويّ. وراح المسيح يطوف القرى والمناطق واعظاً معلّماً، وجمع حوله اثني عشر تلميذاً كانوا يتبعونه في كلّ تنقّلاته التي شملت معظم أنحاء فلسطين، وتخطّتها شمالاً إلى مدينتي صور وصيدا في جنوب لبنان، حيث دعا المسيح إلى التخلّي عن عبادة الأوثان وإلى الإيمان بإله واحد.

وقد ورد ذكر مجيء السيّد المسيح إلى صيدا وصور في الأناجيل. ففي إنجيل مرقس، الفصل الثالث، جاء خبر الزيارة كما يلي: «فانصرف يسوع إلى البحر يصحبه تلاميذه، وتبعه جمع كبير من الجليل، وجمع كبير من اليهوديّة، ومن أورشليم وآدوم وعبر الأردن ونواحي صور وصيدا، وقد سمعوا بما يصنع فجاؤوا إليه...».

وكان السيّد المسيح حيثما حلّ يشفي المرضى، من عميان وصمّ وبكم، ويقيم المقعدين والمخلّعين، ويطرد الشياطين ويقيم الموتى من القبور.

الميلاد

وفي ذلك الزمان، أمر القيصر أغسطس بإحصاء جميع أهل المعمور. وجرى هذا الإحصاء الأوّل إذ كان كيرينيوس حاكماً في سورية. فذهب جميع الناس ليكتتب كلّ واحد في مدينته. وصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة، إلى اليهوديّة إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، فقد كان من بيت داود وذرّيته، ليكتتب ومريم خطيبته وكانت حاملاً. وبينا هما فيها حان وقت ولادتها، فولدت ابنها البكر، فقمّطته وأضجعته في مذود لأنه لم يكن لهما موضع في الفندق.

إنجيل لوقا ٢: ١ ـ ٧.

وعندما وجد اليهود أن رسالة المسيح لا تنطبق مع تطلّعاتهم والدور السياسي الذي كانوا يرسمونه له؛ وبعدما أعلن أنه ابن الله وأن مجيئه إلى العالم هو لخلاص البشر أجمعين، لا اليهود وحدهم، تآمر عليه الكهنة والفريسيّون اليهود ليهلكوه، بعدما أيقنوا أن تعاليمه ستؤدّي بهم إلى خسارة مناصبهم وسلطتهم. وانتهى الأمر إلى ما هو مرسوم للمسيح من قبل مجيئه إلى العالم، فصلب في عيد الفصح على جبل الجلجلة، وهو في الثالثة والثلاثين. ومات وقبر، لكنه قام في اليوم الثالث متغلّباً على الموت، ثم صعد إلى السماء بعدما أوصى تلاميذه بأن يذهبوا ويبشّروا العالم كلّه بإنجيل الخلاص.

وبعد صعوده إلى السماء، وقبل انقضاء القرن الأوّل الميلادي، كتبت الأناجيل الأربعة التي دُوّنت فيها تعاليم المسيح وعجائبه وآلامه وقيامته من بين الأموات.

انتشار المسيحيّة

عمل رسل المسيح بوصيّته، فراحوا يبشّرون بتعاليمه وبملكوت السماوات. ويومئذٍ، كان عدد أتباع المسيحيّة لا يتجاوز المئة والعشرين مؤمناً. وكان كهنة اليهود والرومان يعتقدون أن دعوة المسيح قد انتهت مع موته، فيما رفض معظمهم

الاقرار بقيامته. إلاّ أن المسيحيّة انتشرت بسرعة لم يكن أحد يتصوّرها، ولا سيّما في لبنان، من صور فصيدا، ثم بيروت ومناطق لبنانية أخرى.

وعلى رغم الاضطهاد ومضايقة اليهود للرسل، توسّع الانتشار المسيحي في المنطقة، فانطلق الرسل لتنفيذ وصيّة «المعلّم»: «إذهبوا في الأرض كلّها، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين».

من عظة يسوع الكبرى

فلمّا رأى الجموع، صعد الجبل، وقعد فدنا إليه تلاميذه فأخذ يعلّمهم قال:

«طوبى لفقراء النفوس، فإنّ لهم ملكوت السماوات.

طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض.

طوبى للمحزونين، فإنّهم يُعزّون.

طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنّهم يشبعون.

طوبى للرّحماء، فإنهم يُرحمون.

طوبى لأطهار القلوب، فإنهم يشاهدون الله.

طوبى للساعين إلى السلام، فإنهم أبناء الله يدعون.

طوبى للمضطهدين على البرّ، فإن لهم ملكوت السماوات.

طوبى لكم، إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم كلّ كذب من أجلي، افرحوا وابتهجوا: إنّ أجركم في السماوات عظيم، هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم».

إنجيل متّى ٥: ١ ـ ١٢.

وراحوا ينشرون الإنجيل (وهي تعني البشارة) في سوريا والبادية وآسيا الصغرى واليونان، وصولاً إلى روما بالذات.

وبعد سقوط أوّل شهيد للمسيحيّة، الرسول إسطفانوس، راح المسيحيّون يغادرون فلسطين هرباً إلى المناطق المجاورة أو البعيدة. وقصد الرسل مدينة أنطاكية حيث عرفوا بتسمية «المسيحيّين».

وخلال بضع سنوات، كانت المسيحيّة قد انتشرت في معظم أنحاء العالم القديم، وحتى في قلب روما التي خافت على أوثانها، وخاف أباطرتها على عروشهم ونفوذهم وسلطتهم، وتسلّطهم. فهم قد عرفوا أن المسيحيّة تساوي بين الإنسان والآخر، وتجعل منهما أخوين في المحبة، فلا عبد ولا حرّ. وتعتبر الإيمان ممارسة روحيّة داخليّة، لا مجرّد طقوس وشعائر تشدّ الحواسّ الخارجيّة إليهما، فيما تبقى الروح في عالم آخر.

ولمّا لم يجد قياصرة روما أيّ حلّ يبعد عن شعبهم، وخصوصاً الفقراء، الدين الجديد ويحفظ لهم ألوهيّتهم واستعبادهم للناس، كان لا بدّ من استعمال القوّة وأفظع وسائل البطش في محاولة للقضاء على المسيحيّين وإرهاب كلّ من قد يرغب في أن يسير على خطى تعاليم المسيح، فكان الاضطهاد.

إضطهاد المسيحيّين

بعدما فشل أباطرة روما في حمل المؤمنين المسيحيّين على التنكّر لدينهم والتخلّي عن تعاليم السيّد المسيح في الإيمان بالله الواحد وبملكوت السماوات، ولمّا لم تلق دعواتهم إلى هؤلاء للعودة إلى الصواب، والاعتراف مجدّداً بآلهة روما واحترامها أذناً صاغية لديهم، لجأ الرومان - وقد رأوا الدين الجديد يهدّم قوانينهم ويزدري سلطتهم المبنية على الظلم والاستعباد - إلى اضطهاد المسيحيّين بكلّ ما توفّر لديهم من وسائل القتل والتعذيب، فُصلب من صلب، وأحرق من أحرق. وتمزّقت أجساد الألوف منهم بأنياب الوحوش المفترسة في حلبات مقفلة وأمام عيون المئات من الوثنيّين المتعطّشين لرؤية الدم. وأجبر العديد من المسيحيين على مواجهة بعضهم البعض حتى الموت في حلبات المصارعة.

وقد واجه المسيحيّون أقصى درجات الاضطهاد في عهود نيرون وكاليغولا

وديوكلتيان. فالأول اتّهم المسيحيّين بجريمة حرق روما التي اقترفتها يداه، فعلّق المئات منهم على الصلبان وأحرقهم وهم أحياء.

وفي عهد ديوكلتيان، تعرّض المسيحيّون لأنواع أخرى من التعذيب، كقطع الأعضاء من أنوف وآذان وألسنة وغرز قضبان الحديد في البطون، وغيرها من ألوان الممارسات الوحشيّة التي كان يتفنّن بها جنوده وقوّاده.

ورغم العذاب الذي عرفوه، ثبت المسيحيّون في إيمانهم ولم يهابوا الاستشهاد والموت والسير في الطريق التي سلكها قبلهم السيّد المسيح وشهداء المسيحيّة الأوائل، من رسل وقدّيسين. وواظبوا على ممارسة شعائرهم الدينيّة والاحتفال بالذبيحة الإلهيّة في أماكن سرّية وبعيدة عن العيون.

إلاّ أن وضع المسيحيّين سيتحسّن شيئاً فشيئاً، وسيخرجون بعد فترة قصيرة من الأقبية والكهوف ليمارسوا إيمانهم من دون خوف على حياتهم أو حياة أولادهم، بعدما أيقن أباطرة روما أن اضطهاد هذه الفئة المسالمة من الناس يجب أن يوضع له حدّ نهائي.

أوّل شهيد مسيحيّ

فلمّا سمعوا (اليهود) ذلك (ما قاله إسطفانوس في مجلس اليهود) تلظّت قلوبهم من الغيظ، وجعلوا يصرفون الأسنان عليه. فحدّق إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس، فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله. فقال: «ألا إنّي أرى السموات متفتّحة، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله». فصاحوا صياحاً شديداً، وسدّوا آذانهم وهجموا عليه هجمة رجل واحد، فدفعوه إلى خارج المدينة وأخذوا يرجمونه. أمّا الشهود فخلعوا ثيابهم على قدمي فتى يقال له شاول (القديس بولس قبل أن يصبح مسيحياً).

وجعل إسطفانوس يدعو وهم يرجمونه، فيقول: «ربّ يسوع، تقبّل روحي». ثم جثا وصاح بأعلى صوته: «ربّ، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة». وما إن قال هذا حتى رقد.

أعمال الرسل ٧: ٥٤ - ٦٠.

روما المسيحيّة

لم يعرف المسيحيّون الأمان أبداً في زمن الاضطهاد، ما خلا فترات قصيرة كان يظهر خلالها بعض الأباطرة نوعاً من التسامح أو التغاضي عن هذه المجموعات من المواطنين الرومان ومن رعايا الأمبراطوريّة.

ففي عهد الأمبراطور اللبناني الأصل اسكندر سفيروس الذي دام اثنتي عشرة سنة (٢٢٢ ـ ٢٣٥)، أتيح للمسيحيّين، وللمرّة الأولى، أن يمارسوا إيمانهم وطقوسهم الدينيّة بحرّية ومن دون ملاحقة واعتداء. وهذا التسامح أظهره الأمبراطور على رغم أنه وثني. وعمد أيضاً إلى توظيف عدد من المسيحيّين في بلاطه.

وكان سفيروس يرحّب ببعض المبادىء المسيحيّة، ولا سيّما الآية التي تقول: لا تعمل بالغير ما لا تريد أن يعمله الغير بك.

لكن الانقلاب الكبير في تعامل الأمبراطوريّة سيكون في عهد الأمبراطور الشرقي قسطنطين الكبير الذي سيستقلّ بالحكم سنة ٣٢٣ بعد صراع على العرش مع ستّة مطالبين به. وكانت والدته القديسة هيلانة مسيحيّة، أمّا هو فكان وثنياً في البداية، وقبل أن يستقرّ في الحكم، نشر سنة ٣١٣ القرار المعروف بـ «براءة ميلانو»، وهو يحرّر المسيحيّين من وطأة الاضطهاد ويطلق لدينهم الحرّية التامّة غير المشروطة. ولم يتأخر قسطنطين عن اعتناق المسيحيّة بعد استقلاله بالعرش. فشجّع ذلك أعداداً كبيرة من الناس، ممّن كانوا يخشون الاضطهاد، على اعتناق المسيحيّة. وراحت الأصنام تتهاوى في كلّ مكان وتلغى الهياكل الوثنية لتقوم مكانها الكنائس وتماثيل المسيح والقدّيسين. وتحوّلت الأعياد والاحتفالات الوثنية إلى أعياد واحتفالات مسيحيّة. ولم يتأخر قسطنطين عن الاعتراف بأن المسيحيّة هي دين الدولة الجديد. ويقال أن الأمبراطور تيودوسيوس هو الذي جعل المسيحيّة ديناً رسميّاً للدولة الرومانية.

تقول الاسطورة أنه اعتنق المسيحية وهو في مسيره على رأس جيشه لمحاربة خصمه ومنافسة في رومة لما ظهرت له في الجو علامة صليب يلمع كالنور وعليه كتابة يونانية تقول: «بهذه العلامة تنتصر» وهكذا حدث، فقد ظفر الأمبراطور بخصمه واتخذ فيما بعد علامة الصليب شعاراً امبراطوريا. وكانت امه، هيلانة، امرأة مسيحية صادقة التعبّد ثابتة الإيمان. وقد ذهبت حاجَّة إلى البلاد المقدسة حيث، كما تقول الاسطورة، عثرت على خشبة الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح على الجلجثة، والتي هي الآن موقع كنيسة القبر المقدس. وعليه نستطيع أن نقول بأن تقديس الاماكن المقدسة واحترامها على أنها شعائر دينية بدأ في عهد قسطنطين وأمه. ولا شك أيضاً أن اعتناقهما المسيحية عجَّل في تنصر المملكة كلها. فقد كان يصدر الأمر تلو الآخر بهدم الهياكل الوثنية وتحطيم الصور والتماثيل وبمنع تقديم الذبائح للآلهة الوثنية. كانت هذه الأمبراطورية التي انشأها قسطنطين بعاصمتها الشرقية، القسطنطينية، مسيحية في دينها اغريقية في لغتها وشرقية في اتجاهاتها وميولها.

تاريخ لبنان ـ فيليب حتي

المسيحيّة في لبنان

إن وجود المسيحيّة في لبنان يعود إلى زمن وجود السيّد المسيح على الأرض. فقد وطئت قدماه المقدّستان أرض صور وصيدا. وعلى أرض لبنان قام بإحدى عجائبه عندما شفى ابنة الكنعانيّة الوثنيّة. وقد بنيت كنيسة في مكان العجيبة وهناك بعض المؤرخين يؤكدون أن بلدة قانا الجليل التي شهدت أوّل أعجوبة للمسيح، حين حوّل الماء إلى خمر، هي نفسها بلدة قانا الجنوبية الواقعة في قضاء صور.

وبعد موت المسيح وقيامته وصعوده إلى السماء، كانت المسيحيّة قد انتشرت في جنوب لبنان، واختلط المسيحيّون بالوثنيّين الذين راحوا يتضاءلون عدداً مع

الزمن، وبسرعة. وأصبحت مدينة صور المركز المسيحيّ الأوّل في لبنان حيث قامت جالية مسيحيّة من أبناء المدينة، ومن مسيحيّي أورشليم الذين هربوا من إسرائيل إلى المدينة بعد استشهاد إسطفانوس وازدياد وطأة مضايقة اليهود لهم واضطهادهم.

وفي العام ٥٧، زار القديس بولس صور فوجد فيها كنيسة أنشأها سكان المدينة، وهي تعتبر من أقدم الكنائس التي تمّ إنشاؤها منذ نشأة المسيحيّة. وانتقل بولس مع من تبعوه من المؤمنين إلى مرفأ المدينة حيث أقيمت صلاة جماعيّة. وقد ورد ذلك في أعمال الرسل من الكتاب المقدّس ـ العهد الجديد ـ كما يلي: «ولمّا قضينا الأيام خرجنا وسرنا وهم يشيّعوننا بأجمعهم مع النساء والأولاد إلى خارج المدينة، فجثونا على الشاطىء وصلّينا. ثمّ ودّع بعضنا بعضاً وركبنا السفينة، وعادوا هم إلى بيوتهم» (٢١ ٥ ـ ٦).

ثمّ خرج يسوع من هناك وذهب إلى نواحي صور وصيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك البلاد تصيح: «رحماك سيّدي! يا ابن داود إنّ ابنتي يتخبّطها الشيطان تخبّطاً شديداً». فلم يجبها بكلمة، فدنا تلاميذه يتوسّلون إليه فقالوا: «أجب طلبها واصرفها، فإنّها تتبعنا بصياحها». فأجاب: «لم أرسل إلاّ إلى الخراف الضالّة من آل إسرائيل». ولكنها وصلت إليه فسجدت له وقالت: «أغثني سيّدي!» فأجابها: «لا يحسن أن يؤخذ خبز البنين فيلقى إلى جراء الكلاب». فقالت: «رحماك سيّدي! حتى جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها». فأجابها يسوع: «ما أعظم إيمانك أيّتها المرأة، فليكن لك ما تريدين». فشفيت ابنتها من ساعتها.

انجيل متى: ١٥ : ٢١ ـ ٢٨.

وفي أواخر القرن الثاني الميلادي، أنشئت مطرانيّة في صور بعدما أصبح عدد

أفراد الجالية المسيحيّة فيها كبيراً. وتوسّعت المطرانيّة حتى أصبحت أربع عشرة أسقفيّة في الجوار تابعة لها.

وخلال مرحلة الاضطهاد الذي تعرّض له المسيحيّون في أنحاء الأمبراطوريّة كلّها. عانت صور بعض ألوان العذاب، وخصوصاً في شخص أحد آباء الكنيسة البارزين أوريغون الذي عذّب وكبّلت يداه بالحديد وسجن. وعندما خفّت وطأة اضطهاد المسيحيّين، أخلي سبيله. لكن آثار التعذيب الذي قاساه جعل أيامه المتبقيّة قليلة، فمات شهيداً سنة ٢٥٣، ودفن في كنيسة صور التي سلمت من براثن الوثنيّة.

غير أن الاضطهاد تجدّد خلال عهد ديوكلتيان، وشهدت الأمبراطوريّة من جديد مرحلة من أبشع أعمال العنف والإرهاب والتعذيب بحقّ المسيحيّين. وهذه المرّة، لم تسلم صور من أعمال العنف بسبب الاختلافات التي شهدتها بين المسيحيّين فيها وبقيّة أهلها الذين كانوا ما زالوا على دين ملكارت وعشتروت وغيرهما من آلهة الوثنيّة. ونتج عن هذا الاضطهاد تدمير كنيسة المدينة نحو العام ٣٠٣، وسقوط العديد من أبناء المدينة شهداء، وفي مقدّمتهم أسقف صور تيرانيوس الذي ألقي في البحر بعد تكبيل يديه ورجليه بالقيود.

وبعد ديوكلتيان، واصل خليفته مكسيميان اضطهاد المسيحيّين، وشجّع على استمرار النزاع من خلال تحريضه الوثنيّين على طرد المسيحيّين من المدينة ومن المناطق المجاورة لها.

وفي العام ٣١٣، خلف الأمبراطور قسطنطين سلفه مكسيميان بعد انتصاره على جميع الذين نافسوه على العرش، وأصدر «براءة ميلانو» التي سمحت بحرّية ممارسة العقائد الدينيّة، بما فيها المسيحيّة، فأعادت صور بناء كنيستها على أنقاض الكنيسة المهدومة بإشراف مطران المدينة باولينوس. وكانت هذه الكنيسة الكاتدرائيّة من أهم وأكبر الكنائس التي تمّ تشييدها في فينيقيا. وهكذا، زال شبح الخوف الذي كان يتهدّد دائماً المسيحيّين ويمنعهم من ممارسة شعائرهم الدينيّة في العلن.

وفي العام ٣٣٥، عقد مجمع كنسيّ في صور للنظر في بعض الخلافات. وقد تميّزت جلسات المجمع بالشغب والفوضى، ممّا استدعى تدخّل الجنود الرومان المولجين بالمحافظة على أمن المجمع، وذلك لمنع أعمال العنف بين مؤيّدي العقيدتين المسيحيّتين اللتين انقسم المسيحيّون حولهما. وقد تزعّم الأولى الأسقف آريوس والثانية أسقف الاسكندريّة أثناسيوس. وبما أن حضور المجمع كانوا في معظمهم من مؤيّدي الأوّل، فقد انتهى المجمع إلى الحكم على الثاني بالهرطقة، فأبعد عن منصبه وحكم عليه بالنفي. لكن هذا الحكم نقض لاحقاً واعتبر لاغياً لأنه لا يتماشى مع التعاليم المسيحيّة الحقّة.

ولأبناء صور المسيحيّين فضل في نشر الدين المسيحي في مناطق بعيدة كان سكانها ما يزالون وثنيّين. ففي العام ٣٣٠، إستطاع الراهب الصوري فرومنتيوس إدخال المسيحيّة إلى بلاد الحبشة التي عيّنه أثناسيوس مطراناً عليها.

صيدا

عرفت صيدا المسيحيّة منذ عهد المسيح، وقد نشأت فيها جالية كانت صغيرة في البداية، ثم بدأت تكبر مع الوقت. وقد زار القديس بولس المدينة، خلال القرن الميلادي الأوّل، في طريق عودته إلى روما، وقد وجد فيها كنيسة وجالية مسيحيّة.

لكن صيدا لم تصبح مركزاً أسقفيّاً إلاّ منذ بداية القرن الرابع. وقد حضر أسقفها تيودوروس المجمع الكنسي المسكوني الذي عُقد في نيقيا سنة ٣٢٥، وشارك في وضع قانون الإيمان المعروف بـ «الإيمان النيقاوي».

وفي مرحلة لاحقة، بنيت في صيدا كنيسة لطائفة الروم الكاثوليك سُمّيت «سيّدة المنطرة». وفي الاعتقاد الشعبي أن المكان الذي أنشئت عليه الكنيسة هو المكان نفسه الذي انتظرت فيه السيّدة العذراء، أمّ يسوع، ابنها عند قدومه إلى صيدا.

بيروت

لم تتأخّر مدينة بيروت عن اللحاق بجارتيها الجنوبيّتين، صيدا وصور، في اعتناق المسيحيّة. فتعاليم الرسل التي وصلت إليها كانت أقوى تأثيراً على سكانها من العنف والإرهاب الرومانيّين. وأصبحت مركزاً أسقفيّاً، كما صيدا، في بداية القرن الرابع. وهذه المدينة زارها أيضاً القديس بولس أثناء أسفاره التبشيريّة، كما زارها القديس بطرس. ومن الطبيعي أن يبشّر القديسان بالدين المسيحي في المدينة وأن يدعوا أهلها إلى اعتناقه ونبذ عبادة الأوثان. ويذكر بعض المؤرخين أن القديس بطرس أقام على بيروت أسقفاً يدعى كوارتوس، وقد ورد ذكره في رسالة القديس بولس إلى أهل روما (١٦ : ٢٣).

وبعدما كانت كنيسة بيروت تابعة لمطرانيّة صور، إستقلّت عنها في القرن الخامس وألحقت بها كنائس جبيل والبترون وطرابلس وعرقة وطرسوس.

وتعرّض مسيحيّو بيروت للاضطهاد في زمن الأمبراطورين ديوكلتيان ومكسيميان، واستشهد العديد من أبنائها ومن طلاّب مدرسة الحقوق فيها الذين تخلّوا عن ديانتهم الوثنية واعتنقوا المسيحيّة. ومن هؤلاء يذكر المؤرّخ أوزيبيوس بامفيلوس الذي أصبح أسقفاً في قيسارية، وأبفيانوس؛ وهما ينتميان إلى عائلتين وثنيّتين ثريّتين، وقد سجنا وعذّبا قبل أن يقتلا.

وأدّى الاضطهاد أيضاً إلى تدمير كامل لكنائس بيروت، وإلى حرق الكتب المسيحيّة وطرد المسيحيّين من وظائف الدولة والجيش. وكانت وحشيّة مكسيميان وفظائعه تفوق أعمال سلفه. ففي عهده، كان المسيحيّون الذين يرفضون العودة عن إيمانهم يموتون أبشع الميتات: بين أنياب الوحوش المفترسة، على الصليب، حرقاً أو غرقاً، وكانت تبتر أعضاء البعض قبل أن يواجهوا الموت.

وسط هذه الاضطهادات، كان سكان بيروت ينقسمون إلى فئتين: المسيحيّون والوثنيون. ولم تصبح بيروت مسيحيّة تماماً إلاّ في أواسط القرن الرابع بعد الزلزال الذي دمّرها سنة ٣٤٩.

وتنصّر بيروت يعود الفضل الكبير فيه إلى أحد شهداء المسيحيّة القدّيسين، جورجيوس أو مار جرجس. فهذا القديس الذي استشهد خلال الاضطهاد الكبير سنة ٣٠٣، تحاك حوله رواية، أو أسطورة، غير ثابتة تاريخياً. وجاء في الرواية أن جورجيوس قتل التنّين في خليج بيروت المسمّى اليوم على اسمه، واستطاع إنقاذ ابنة الملك من الموت. وإكراماً له، أقام له الملك كنيسة مهمّة في المدينة. وقد خلّدت هذه الرواية بالرسم الذي يصوّر القديس على حصانه وهو يطعن التنّين برمحه.

إن غير الثابت في هذه الرواية هو أن البعض يزعم أنها حدثت في بيروت، والبعض الآخر في فلسطين، قرب يافا. وآخرون يدّعون أنها وقعت في مدينة نيقوميديا. كما أن دور التنّين في الرواية يثير الاستغراب.

ومن الروايات غير المؤكّدة أيضاً أن القديسة بربارة استشهدت في بيروت، وكرّمت ابتداء من القرن السابع، وقد بنيت لها كنيسة في بيروت ظلّت قائمة حتى القرن الخامس عشر.

وعندما اعتنق الأمبراطور قسطنطين المسيحيّة، أمر بهدم هياكل الوثنيّين الذين كانوا ما يزالون يمارسون شعائرهم الدينيّة فيها، ومن بينها هيكل أفقا في لبنان.

ويروي المؤرّخ أوزيبيوس بعض ما كان يقام في هذا الهيكل من ممارسات وثنية مخالفة تماماً لأبسط مبادىء الدين المسيحي:

«لم يكن هذا الهيكل في وسط مدينة بل كان في غابة نائية عن العمران بعيدة عن الطرق التي يسلكها الناس، في مكان اسمه افقا على قمة من قمم لبنان. وكان مكرساً لعبادة شيطان رجيم يعرف بالزهرة (فينوس). كان هذا الهيكل بؤرة فساد وشر يقيم فيه اشرار نذروا نفوسهم للدعارة والبغاء. في هذا المعبد كان الإنسان يفقد كل احترام لقدسية الإنسان وقدسية طبيعته الجنسية، فكان يقدم جسده ذبيحة على مذبح الدعارة ليستميل رضا الشيطان، هنا كانوا يتجرون بالنساء ويستبيحون كل رذيلة وفساد».

تاريخ لبنان - فيليب حتي.

وخلال القرن الرابع بدأت المسيحيّة تنتشر في كلّ أنحاء لبنان، ومع الوقت. سيصبح لبنان ملجأً للمضطهدين من كلّ المناطق المجاورة، وخصوصاً بعد البدع التي قسّمت المسيحيين إلى أقسام مختلفة متنازعة. وعندما سيطر أصحاب مذهب «المونوفيزيّة»، أو «اليعاقبة»، على السلطة الدينيّة في سوريا الشماليّة، بتأييد من السلطات المدنيّة، راحوا يضطهدون من يخالفونهم مذهبهم من المسيحيّين. ومن بينهم القديس مارون ورهبانه الذين كانوا مستقرّين بالقرب من نهر العاصي. ولقد لجأ هؤلاء إلى المناطق الجبليّة الشماليّة في لبنان حيث استقرّوا. ومع الزمن، كبرت طائفتهم ولعبت، وما تزال، دوراً مصيرياً بارزاً في تاريخ لبنان.

الفصل الرابع

إنهيار الأمبراطوريّة الرومانيّة

بعد تقسيم الأمبراطوريّة إلى قسمين، شرقي وغربي، بدأ القسم الغربي بالتدهور الاقتصادي تدريجاً، وسيطر الفقر والعوز على الناس مع استمرار تسليط سيف الضرائب فوق رقابهم.

أما القسم الشرقي فقد حافظ على قوته الاقتصاديّة والحضاريّة. وعرفت بيزنطية أوج عزّها في عهد الأمبراطور قسطنطين. ورغم تعرّضها لخطر البرابرة والهون، فإنها حافظت على استقلالها بفضل مناعة أسوارها.

سقوط روما

خلال النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، عرفت الأمبراطورية الغربيّة قدوم موجات من الشعوب الجرمانيّة التي كانت تدخل الأراضي الرومانية هرباً من الهون. ولم يلبث الجرمان أن هاجموا روما سنة ٤٧٦، وسيطروا عليها بعدما خلعوا آخر أمبراطور روماني رومولوس أوغسطول الذي كان في العاشرة من عمره. وهكذا، زالت الأمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة من الوجود.

سقوط بيزنطيّة

بعد سقوط روما، تعرّضت الدولة البيزنطيّة لمخاطر عديدة، داخليّة وخارجيّة، كان أبرزها ثورة داخليّة واجهت الأمبراطور يوستنيانوس في أواسط القرن السادس، لكنه قضى عليها.

وفي النصف الأول من القرن السابع، اصطدم البيزنطيّون بالفرس الذي احتلّوا القدس سنة ٦١٤، واستطاع الأمبراطور هيراكليوس بعد حملات عسكريّة متتالية طردهم من المدينة المقدّسة واستعاد الصليب المقدّس الذي سلبه الفرس.

وخلال القرن السابع أيضاً، بدأت غزوات العرب فسيطروا على سوريا ومصر

بعد انتصارهم على البيزنطيّين في معركة اليرموك. واستمرّت الدولة في حال من الفوضى، وراحت تتعرّض لحملات من العثمانيّين والسلجوقيّين ابتداء من القرن الحادي عشر، فخسرت آسيا الصغرى.

وسنة ١٤٥٣، وبعدما قويت شوكة العثمانيين، هاجموا مدينة القسطنطينيّة بقيادة السلطان محمد الثاني فسقطت في السنة نفسها. وانتهت بسقوطها مرحلة حضارية مهمّة في تاريخ العالم.

المراجع

القسم الأوّل:

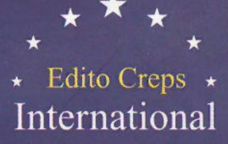
- **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** - فيليب حتّي.
- **تاريخ لبنان** - فيليب حتّي.
- **تاريخ سوريّا** - جرجي ينّي، دار لحد خاطر.
- **تاريخ لبنان الحضاري** - يوسف السودا، دار النهار للنشر.

القسم الثاني:

- **تاريخ لبنان** - فيليب حتّي.
- **تاريخ سوريا** - جرجي ينّي.
- **تاريخ لبنان الحضاري** - يوسف السودا.
- **تاريخ الحضارات العام** - الجزء الثاني - روما وأمبراطوريّتها - منشورات عويدات.

المحتويات




Edito Creps
International